تأليف
احمد ابو عصيدة البجائي

رسالة الغريب الى الحبيب

تعريف
وتعليق وتلخيص
ابو القاسم سعد الله

دار الغرب الإسلامي

albordj.blogspot.com

رسالة الغريب إلى الحبيب

تأليف

أحمد أبو عصيدة البجائي

المتوفى حوالي 865 هـ

تعريف وتعليق وتلخيص

أبو القاسم سعد الله

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1993

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

عندما ينتهي القارىء من قراءة ما كتبناه عن (رسالة الغريب) قد يسأل نفسه: لماذا لم يترجم مؤرخو الرحلات والأدب لحياة مؤلفها أبي عصيدة البجائي في كتب التراجم والطبقات. ذلك أن البجائي لم يكن نكرة بين علماء وأدباء القرن التاسع الهجري (15 م). لقد كان معروفاً لبعض علماء تونس ومصر والحجاز والشام. وقد امتلأت كتب التراجم بمغمورين لا نكاد نجد لهم مشاركة في مجريات عصرهم. إننا لا نعتقد أن البجائي قد أهمله معاصروه، ولكننا نعتقد أن ترجمته قد تكون ضاعت فيما ضاع من التراث.

إن النبذة التي سقناها نحن عن حياة البجائي إنما ساقها هو نفسه في رسالته. وهي حياة رجل هارب، فيما يبدو، من ظلم الإنسان إلى رحمة الله، ومن الشقاء البدني إلى السعادة الروحية، إنه فارق الأهل والأوطان في ظروف لا نعرف عنها إلا القليل، ورضي بجوار الرسول (ﷺ) معوضاً بذلك ما فقده من أهل ووطن. لا نعرف أن للبجائي أسرة وولداً، ولا وظيفة علمية في بلاده، ولا جاهاً سلطانياً. لم يكن هروبه في نظرنا هروباً سياسياً

كما فعل ابن خلدون، ولا إرضاء للطموح والمجد كما فعل أبو الفضل المشدالي. لقد كان هروب البجائي ابتعاداً عن فوضى السياسة والمنافسات القبلية واضطراب الأحوال الاجتماعية في الدولة الحفصية التي كانت تحكم تونس والشرق الجزائري - بما في ذلك بجاية - والظاهر أنه لم يجد راحته أيضاً في مصر المملوكية، ولذلك توجه، في رحلتين متباعدتين، إلى الحرمين الشريفين حيث جاور واستقر راضياً مطمئناً.

وقد كان في الإمكان أن لا نعرف عن البجائي شيئاً لولا الرسالة المطولة التي بعثها من المدينة المنورة إلى صديقه أبي الفضل المشدالي بالقاهرة. وهي الرسالة التي تنقلت بين أيدي النساخ حتى وصلت إلينا منها نسخة شريطية من إحدى المكتبات الأمريكية، وليس على هذه النسخة الوحيدة اسم لناسخ ولا تاريخ النسخ وإنما عليها فقط اسم بعض المالكين لها. وإذا كان من المفضل في التحقيق الرجوع إلى أكثر من نسخة، فنحن لم نستطع الوصول حتى إلى النسخة الوحيدة التي ذكرناها. فالمسافة بيننا وبين أمريكا بعيدة وفرص السفر إليها قليلة وصورة الشريط لم توضح كل الأسطر وكل الفقرات. فهل كان علينا أن ننتظر إلى أجل غير مسمى ليعرف الناس شيئاً عن أبي عصيدة البجائي ورسالته؟.

لقد لجأنا إلى نشر ما يمكن نشره عن حياة وكتاب البجائي، ونحن نعرف أن الانتظار قد يكون هو أحد الطرق التي يراها بعض الباحثين، وقد فكرنا في طلب استنساخ (رسالة الغريب) باليد من أحد الناسخين بأمريكا، ولكن أنى لنا ذلك مالاً وخبرة

كان اجتهادنا إذن أن نكتب خلاصة عن الرسالة، وأن نورد نصوصاً منها مساقة بدون تدخل منا إلا في القليل، وأن نذكر شيئاً عن حياة المؤلف وحياة المشدالي الذي وجهت إليه الرسالة، مع إلمامة بالعصر. وقد ارتأينا في البداية نشر هذا العمل المختصر في شكل بحث في دورية لعل أصحاب المخطوطات يفاجئونا بنسخة مطمورة من (رسالة الغريب). ولكن البعض رأى نشر الرسالة في كتاب باعتبار المختصر يقدم زبدتها، في انتظار العثور على نسخة أخرى أو على استنساخ النسخة الأمريكية كاملة.

بقي أن نذكر أن البجائي كان ينظم الشعر وكان يحفظ منه الكثير، كما كان له ذوق أدبي سليم. يظهر ذلك في إنشاداته ومختاراته الشعرية، ويظهر أيضاً في حرصه على جمع شعر صديقه المشدالي، الذي يقول عنه أنه كان مقلاً فيه. وهناك ملاحظة أخرى نشير إليها وهي عبارة (الغساني) الواردة في النسبة بعد البجائي. وقد سألنا ما إذا كانت هناك قبيلة غسانية بنواحي بجاية اليوم فلم يدلنا أحد على ذلك. ومن عبارة البجائي نعرف أنه ذو صلة وطيدة بعائلة المشدالي التي لا نعرف أنها (غسانية) الأصل، أما أحمد أبو عصيدة فقد قال عن نفسه أنه (بجائي المنشأ والدار، غساني الأصل). فهل يشير بذلك إلى الغساسنة ملوك الشام؟.

ولا يسعنا إلا أن نختم هذه المقدمة بالتنويه بما للجزائر من تراث عربي إسلامي ضاع بعضه، وانتقل بعضه إلى مناطق أخرى من العالم وما يزال غير معروف. وقد كان البحث المتواصل

على هذا التراث قد هدانا إلى ثروة هائلة تعرضنا إلى بعضها في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي، ونعتقد أنه ما يزال في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، كما يقول القدماء. وعلى الجيل الجديد أن يواصل البحث عن تلك الخبايا والبقايا.

الجزائر في 3 أكتوبر 1992

أبو القاسم سعد الله

جامعة الجزائر

عضو مجمعي اللغة العربية

في القاهرة ودمشق

مخطوط في الأدب والرحلة
لأبي عصيدة البجائي
القرن 9 هـ 15 م

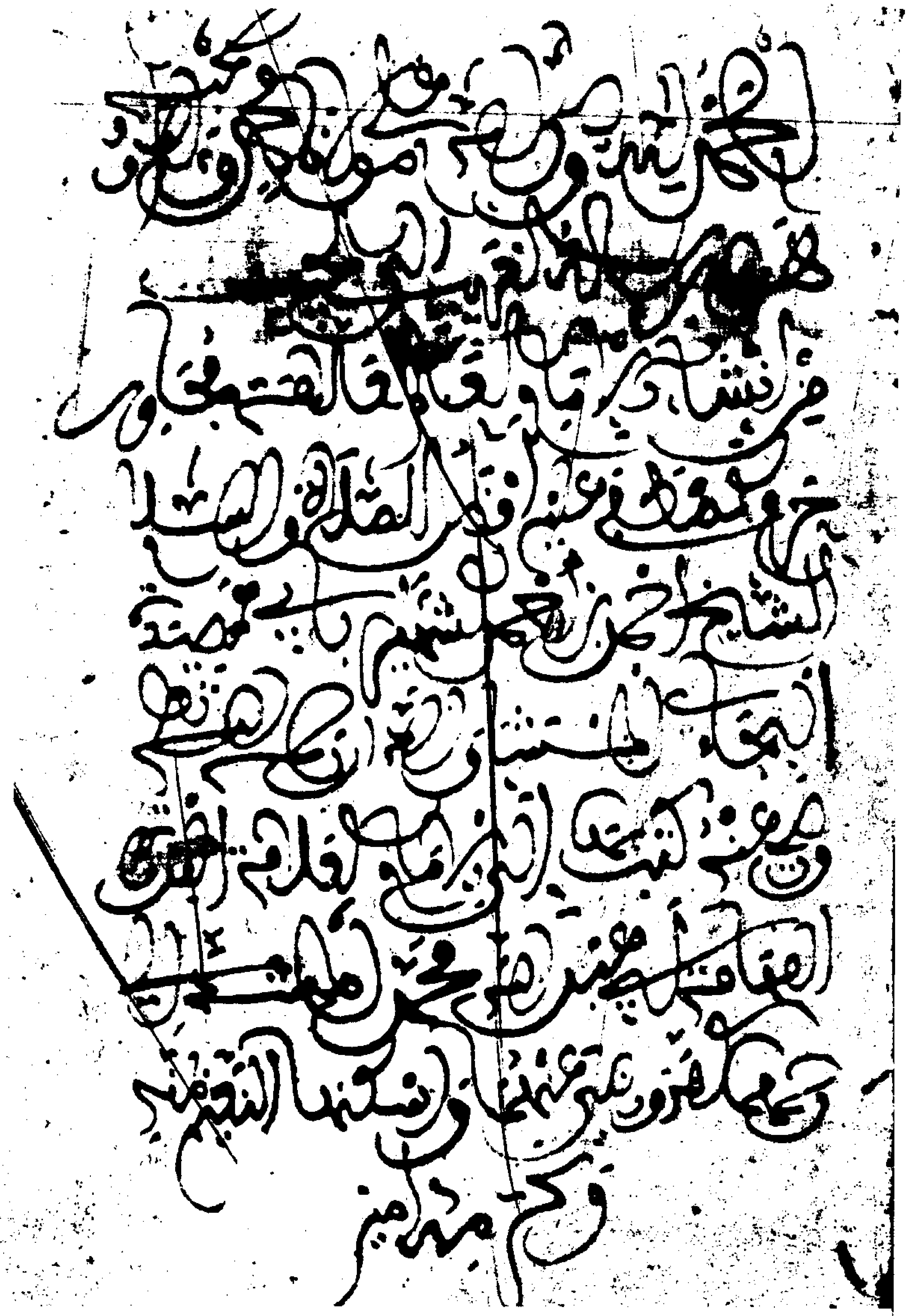
الحمد لله وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه
هذه رسالة الغريب

صفحة العنوان من (رسالة الغريب) للبجائي،
وهي الورقة الرابعة بالترقيم الحالي للمخطوط

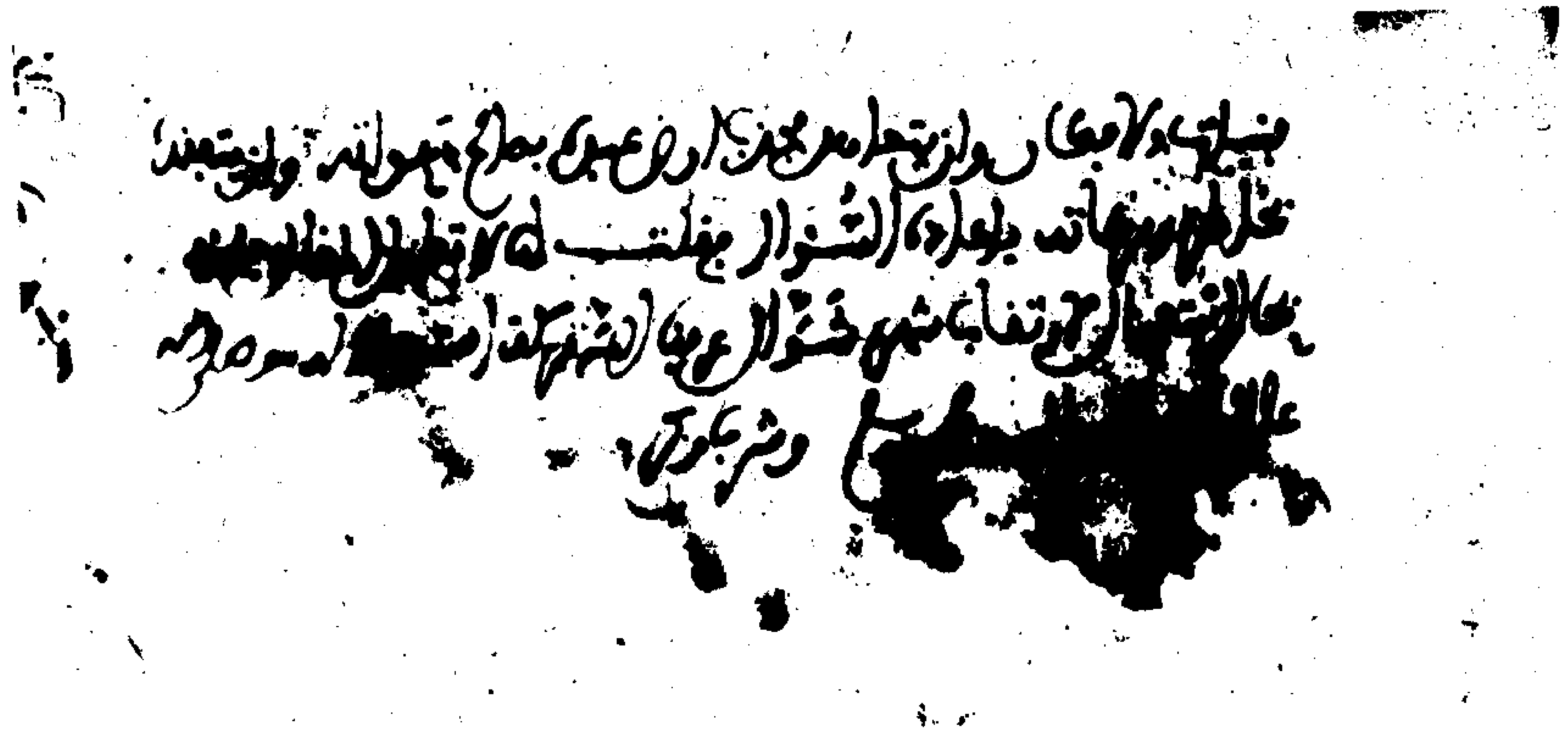

الورقة الأخيرة من (رسالة الغريب) وهي برقم 75 في المخطوط

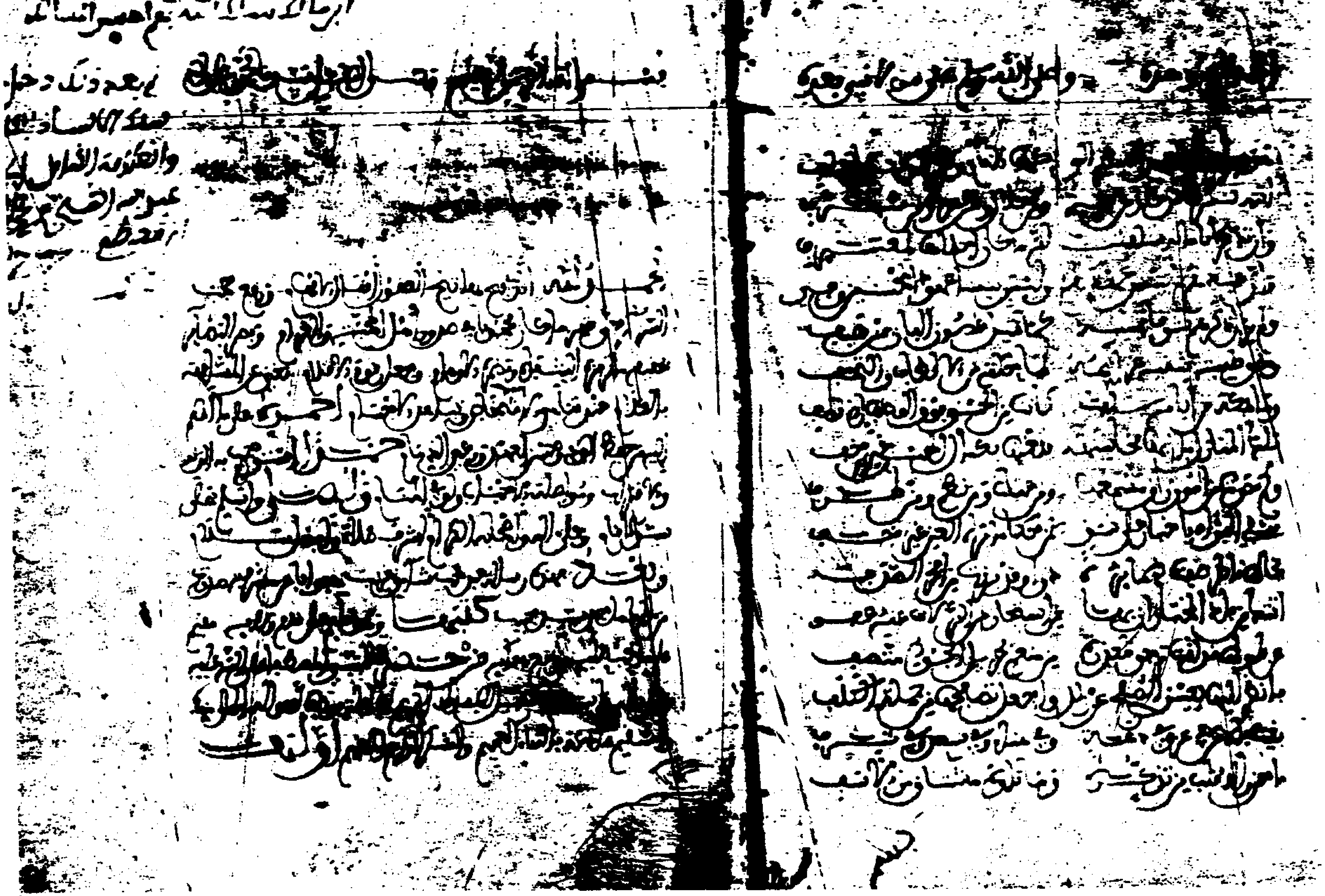

ورقة البداية لرسالة الغريب وعليها يظهر التمليك الأول والثاني
وهي الورقة الخامسة من الترقيم الحالي للمخطوط

1 ـ المــخطوط:

من نوادر المخطوطات في الأدب والرحلة ما كتبه أحمد البجائي المعروف بأبي عصيدة، بعنوان (رسالة الغريب إلى الحبيب) وهو مراسلة مطولة بعث بها من الحجاز عندما كان مجاوراً للحرم النبوي، إلى صديقه وبلديّه أبي الفضل المشدالي الذي كان عندئذ بمصر. وقد تضمن المخطوط أيضاً وصفاً كافياً لكتاب آخر لأبي عصيدة عنوانه (أنس الغريب وروض الأديب). وإذا كان الكتاب الأخير مفقوداً الآن، فإنه من حسن الحظ أننا حصلنا على نسخة من مخطوط (رسالة الغريب إلى الحبيب)، وهي التي نقدمها اليوم للقراء.

ومكان المخطوط هو مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية (قسم يهودا رقم1195) ، وقد حصلنا منه على نسخة شريطية (ميكرو فيلم) سنة 1978 واستعملناه في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، ثم ظل محفوظاً في مكتبتنا إلى اليوم. ومنذ حوالي سنتين قدمنا عرضاً عنه إلى (ملتقى علماء زواوة) الذي انعقد بمدينة تيزى وزو سنة 1987. ويقع المخطوط في 75 ورقة، ويضم ورقة غير مرقمة مكانها بين7 و 8 حسب الترقيم الحالي. ويبدأ المخطوط في الواقع من ورقة رقم 4 . والخط مغربي

معلق، ولكن صفحة العنوان كتبت بخط مختلف فيه تفنن. وعدد الأسطر في كل صفحة 18 سطراً. والنص كامل. وأرقامه عربية بالطريقة الأمريكية. ومكتوب على المخطوط أنه «هدية من روبرت قاريت Robert Garrett».

وعنوان المخطوط، حسبما جاء في فهرس مكتبة برنستون، هو (رسالة الغريب إلى الحبيب)، وقد جاء اسم المؤلف فيه هكذا: الشيخ أحمد بن أحمد البجائي المنشأ والدار، ومجاور الحرم النبوي. أما عن الرسالة فقد جاء في المخطوط أن المؤلف كتب بها إلى أبي عبد الله محمد المشدالي. وقد دخل المخطوط في حوزة شخصين على الأقل، أحدهما، محمد بن مصطفى ابن الشيخ محمد بن أحمد لك (كذا) ابن مالك. سَلَكَ اللهُ بهم أحسن المسالك. وهذا الاسم (محمد بن مالك) كان موجوداً بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر، وكان من قضاة الوقت[1]، ولكن الاسم شائع أيضاً وليس بالضرورة أن يكون هو القاضي المذكور. أما المالك الثاني للمخطوط فهو العالم المعروف المكي بن عزوز المتوفى سنة 1334 هـ. وقد جاء في وصفه على النسخة هكذا «ثم بعد ذلك دخل (أي المخطوط) في ملك الأستاذ الكامل والعلامة الشامل أبي عبد الله الشيخ سيدي محمد المكي ابن المصطفى ابن عزوز[2] حرس الله كماله».

(1) عن القاضي محمد بن مالك أنظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي، جـ 141/2. وكذلك مذكرات الشريف الزهار، نشر أحمد توفيق المدني، الجزائر 1974، 142.

(2) انظر عنه عبد الرحمن الجيلالي، مقالة مسلسلة في (الشهاب) ابتداء من الجزء 11 المجلد 6، ديسمبر 1930.

ويبدأ المخطوط بقصيدة تمهيدية ثم ديباجة للرسالة ثم نص الرسالة، وهي على طولها تتواصل بدون توقفات ولا فصول. ومن القصيدة (الفاتحة) نعرف أن الرسالة قد كتبها البجائي من المدينة المنورة إلى صديقه أبي الفضل المشدالي بالقاهرة.

أما الديباجة النثرية فتبدأ هكذا: الحمد لله الذي فتح بمفاتيح العقول أقفال الأفهام، ورفع حجب السرائر حتى ظهر ما كان محجوباً في صدور أهل المحبة والغرام... وبعد فهذه رسالة عبد محب شائق غريب، جواباً عن مشرفة صدرت من مالك ماجد سيد حبيب، ... أولها.... أسعد الله تعالى، المقام العلي... مقام سيدنا الشيخ الإمام... أبو (كذا) الفضل محمد ابن... محمد المشدالي... من العبد الفقير... أحمد بن أحمد شهر بوعصيدة البجائي المنشأ والدار، الغساني الأصل المدني الآن القرار....

ونهاية الرسالة معروفة لدينا إذ تقع على ورقة 75 من المخطوط، فقد ودع المؤلف الرسالة بعبارات الختام وقال أنه على استعجال لانتظار شهر شوال. ولكن تاريخ الرسالة غير مذكور. وفي ثناياها بعض التواريخ التي لم نستطع أن نحلها، ولكننا كدنا نفهمها على أنها سنة 856 . ذلك أن الترقيم (أو الرمز) غريب إلى حد كبير، ولكن الملابسات التاريخية لحياة المشدالي وحياة أبي عصيدة قد تساعد على ذلك التاريخ وهو 856 أو قريب منه.

والرسالة قد اشتملت على نثر وشعر. أما النثر فهو من إنشاء أبي عصيدة وقد اتبع فيه السجع الطويل الذي هو بضاعة عصر

المماليك، فلا يكاد يتخلى عنه. وهو سجع جميل ورقيق في الجملة، ولكنه جاء متكلفاً أحياناً. ونثره يدل على تمكنه من صناعة الأدب ومن المحفوظات الغزيرة. أما الشعر فقد مزج فيه بين نظمه هو ونظم غيره، ولم يميز بين النظمين إلا في حالة أو حالتين[1]، كما سنرى. وقد عبر عن شعر غيره أحياناً بقوله قال فلان أو قال الآخر. ولكنه كشف في نهاية الرسالة أنه تعمد عدم التمييز حتى يترك لأبي الفضل المشدالي المجال للاجتهاد والبحث وحتى يظهر أمامه بمظهر التواضع.

2 ـ أبو عصيدة البجائي:

واضح من المخطوط وغيره من الملابسات أن أبا عصيدة قد عاش في القرن التاسع الهجري (15 م). ورغم أننا لم نجد له فيما اطلعنا عليه، ترجمة في كتب التراجم المعاصرة له مثل (الضوء اللامع)، فإنه (أبا عصيدة) ساق أموراً في هذه الرسالة نستطيع من خلالها أن نستشف بعض الجوانب من حياته. فهو كما يصرح من مواليد مدينة بجاية، ولعله ولد في العشرية الثالثة من القرن التاسع.

ونحن لا نعرف الآن صلته بعائلة المشدالي، ولكن القرائن تدل على أنه قد يكون هو أيضاً من (مشدالة) القريبة من بجاية. وهو يذكر في (أنس الغريب) خبراً يزيد في حيرة نسبته إلى عائلة المشدالي وقبيلته. فهو يقول أنه تعرض فيه إلى ورود

(1) انظر ورقة 29 من المخطوط إذ يصرح بأنه هو صاحب الشعر.

«حفيدنا محمد المشدالي» إلى تونس، والكلمة المحيرة حقاً هي «حفيدنا» كما جاء فيه أنه اتصل بكتاب «الشيخ الوالد»، وهذه العبارة قد تفهم على أنه يعني والده هو، وقد تعني والد أبي الفضل. ومما يرجح المعنى الثاني أن أبا عصيدة أخذ يصف هذا الوالد بأوصاف الكرم والبلاغة والأحوال المرضية «ما يعجز عن بعض وصفه الواصفون، وتقصر عنه بلاغة الفصحاء اللسنون». ومعنى ذلك أنه ترجم لوالد أبي الفضل كما ترجم للابن أيضاً. ومهما كان الأمر فإن كل ذلك يدل على وثوق الصلة بين أبي عصيدة وعائلة المشدالي سواء اعتبرناها صلة عائلية أو قبلية أو جهوية.

ويبدو أن أبا عصيدة قد تعلم ببجاية على شيوخ من عائلة المشدالي، ومنهم محمد المشدالي[1]، مفتي بجاية وعالمها ووالد صديقه أبي الفضل، ولكننا لا نعرف مدى تعلمه ولا متى غادر بجاية إلى تونس ثم منها إلى الحجاز. والظاهر أنه عايش صديقه أبا الفضل في بجاية أيام الطلب أي قبل 840، وهي السنة التي توجه فيها أبو الفضل إلى تلمسان للدراسة. ويشير أبو عصيدة إلى ذلك في رسالته حين يذكّر أبا الفضل بتعارفهما القديم في بلاد المغرب (بجاية؟) وكيف لقيه بعد ذلك بالمشرق.

ومهما كان الأمر فإن أبا عصيدة قد التقى بالمشدالي

(1)انظر عنه الوزير السراج (الحلل السندسية) 681/3. وقد ترجم له أيضاً أحمد بابا في (نيل الابتهاج)، 314. وله مؤلفات في الفقه المالكي منها تكملة تعليق الوانوغي على البرادعي، وحاشية على مختصر ابن الحاجب إلخ.

بمصر، وجالسه مدة لا نعرف طولها. ثم توجه إلى الحجاز. والظاهر أنه قد سبق المشدالي إلى المشرق. فهو يذكر أنه (أبا عصيدة) حج مرتين على الأقل، دون ذكر التواريخ، ولكنه يذكر أنه أدى فريضة الحج أول مرة وأقام بالمشرق أعواماً. ثم رجع إلى تونس. ويسمي ذلك رحلته الأولى، وهي التي بسط فيها القول في كتابه (أنس الغريب). وقد سأل وهو بتونس عن أهله وأصدقائه فيها وفي بجاية فكان كلما سأل عن أحدهم أجيب بأنه قد توفي. فضاقت نفسه ولم يواصل السير نحو بجاية ولم يطل الإقامة بتونس بل رجع إلى الحجاز عبر مصر.

وقد وصف طريقه، شأن الرحالة، ووصف من عرفهم أو قابلهم. وهذا الجزء من كتابه (أنس الغريب) ذو أهمية خاصة إذ ينطبق عليه اسم الرحلة التي قد تكون جمعت فوائد جمة. وسنرجع إلى هذا الكتاب.

وفي الرسالة أخبار حول إقامة أبي عصيدة بمصر وعلاقته بأبي الفضل المشدالي وببعض العلماء والأصحاب، كما فيها أخبار عن إقامته في الحجاز ومجاورته بالمدينة المنورة، ونعلم منها أيضاً أنه كان يختم الحديث الشريف خلال رمضان وأنه كان يقرىء بعض الكتب الحديثية والفقهية، وكان له أصحاب ومعجبون وحتى خصوم، وأنه كان راضياً عن إقامته بالحجاز حتى أنه رد رداً قوياً على بعض المغاربة (من تونس) الذين نصحوه بالعدول عن المجاورة الطويلة وضرورة العودة إلى وطنه الأصلي. ورغم أن السخاوي قد زار الحجاز عدة مرات وظل على قيد الحياة إلى سنة 902 فإنه لم يكتب شيئاً عن حياة أبي عصيدة البجائي في

(الضوء اللامع) ولا ندري سبب ذلك خصوصاً ونحن نعلم أن السخاوي قد ترجم لمن هو أخمل ذكراً من أبي عصيدة، كما حج على القلصادي سنة 853 وسجل في رحلته بعض من قابله من المغاربة في القاهرة وغيرها، ومنهم المشدالي نفسه وأحمد الزواوي، غير أنه لم يشر إلى اسم أبي عصيدة.

ذكر أبو عصيدة بعض أعماله، ومنها:

1 ـ الرسالة التي نحن بصددها (رسالة الغريب إلى الحبيب)

2 ـ (أنس الغريب وروض الأديب) وسنعود إلى الحديث عنه.

3 ـ تعليقة سنية في حل ألفاظ الجرومية[1].

3 ـ عصر أبي عصيدة:

عاش أبو عصيدة في القرن التاسع الهجري (15 م). وهو بدون شك عصر ضعف سياسي عرفه العالم الإسلامي، يشهد له انحسار سلطان المسلمين في الأندلس، وسيطرة الإسبان على معظم موانىء المغرب العربي وظهور قوة الدولة الإسبانية الحاقدة على الوجود العربي ـ الإسلامي. ومن جهة أخرى كان هناك حكام ضعاف في المغرب العربي منشغلين بالتنازع على الفتات والتقاتل على الصغائر وليس على العظائم. فهؤلاء بنو مرين

---

(1) يرجح أنه له، وقد ذكره محمد المنوني في (فهرس المكتبة الناصرية ـ بمتغروت) رقم 1722 ضمن مجموع رقم (ج). سنة 1985، وهو في هذا المصدر: أحمد البجائي أبو عصيدة.

بالمغرب الأقصى وهؤلاء بنو عبد الواد في معظم المغرب الأوسط (الجزائر)، ثم هؤلاء الحفصيون في أفريقية (تونس). وكان التنازع بين هذه «الدويلات» لا ينقطع ولو كانت نظرية البقاء للأقوى أو للأصلح تصدق عليهم لكان خيراً للشعوب أن ينتصر الأقوى والأصلح منهم ولكن الأحداث برهنت على أنه لم يكن في أولئك الحكام من هو الأقوى أو الأصلح، ولذلك كان الحل في يد غيرهم، أي في يد الدولة الإسبانية ثم الدولة العثمانية.

والمدينة التي أنجبت أبا عصيدة والمشدالي ـ بجاية ـ كانت تعيش في ظل الحكم الحفصي الذي مقره تونس. وكان الحفصيون يرسلون بولاتهم إلى بجاية وقسنطينة وعنابة إلخ. ومن أبرز الحكام الحفصيين الذين عاصرهم أبو عصيدة هو أبو عمرو عثمان بن محمد المنصور بن عبد العزيز (821 — 893) وهو أمير طال عمره في الحكم (خمسون سنة) واشتهر بين المعاصرين بالعدل والعلم، وساد الأمن في إمارته معظم الوقت. ويذكر المؤرخون أن أمه كانت أوروبية (علجية)، وإن الدولة ازدهرت في عهده فاشتغل ببناء المدارس والزوايا وتأسيس العيون المائية للسابلة، وشيد دار كتب هامة، وعيّن قواداً وقضاة ساعدوه على أداء مهمته. منهم القائد أبو علي المنصور الملقب بالمزوار، وهو الذي ولاه قسنطينة ثم بجاية سنة 856 (وهي الفترة التي يغلب على الظن أن أبا عصيدة ألف فيها رسالته)، ومنهم القائد ظافر بن جاء الخير الذي شغل وظيفة قائد الحاضرة (العاصمة) وكان ينوب فيها عن الخليفة (أي أبي عمرو عثمان) عند غيابه [1]. وهذا

---

(1) انظر(تاريخ الدولتين) للزركشي، ص 134 وما بعدها.

القائد قد نوه به أبو عصيدة في إحدى قصائده كما سنرى، كما نوه كثيراً بالأمير (الخليفة) أبي عمرو عثمان نفسه.

أما العلماء الذين كانوا في هذه الفترة فتشير الكتب إلى أن مفتي بجاية سنة 846 هو منصور بن عثمان البجائي. وهي الوظيفة التي تولاها أيضاً محمد المشدالي، والد أبي الفضل، والمعروف أن المفتي محمد المشدالي قد توفي سنة 867، أي بعد وفاة ابنيه محمد (859) وأبي الفضل (864). وقد ذكر أبو عصيدة بعض علماء بلده بجاية وعلماء تونس كما أشرنا، في مقدمة كتابه (أنس الغريب) وذكر من هؤلاء محمد المشدالي الابن المتوفي سنة 859، مما يدل على أن رسالته قد كتبها قبل هذا التاريخ، كما ذكر أحمد القروي التونسي[1] الذي جاء له برسالة من أحد علماء تونس ينصحه فيها بالعودة إلى وطنه والكف عن المجاورة.

وكانت مصر عندئذ تحت حكم المماليك الجراكسة الذين افتتح عهدهم الظاهر جقمق (842 - 1458/857 - 1453). وقد كان منهم الظاهر قايتباي (872 -1468/901- 1496). وكان المشرق العربي، بما فيه سورية والحجاز، تحت نفوذ هؤلاء المماليك الذين حافظوا على رمز الخلافة وعلى هياكل الدولة

---

(1) انظر الضوء اللامع 257/2، وهو فيه أنه رجل صالح شاذلي الطريقة مالكي المذهب، ترك مخالطة الملوك، وكان يجيء بركب الحج من الغرب (المغرب العربي) كل سنة إلى الحجاز فيبجله الناس لاعتقادهم فيه البركة. توفي سنة 869 في طريقه من بيت المقدس إلى مكة. وقد ذكره أبو عصيدة ورقة 33 على أنه قد جاء له بجواب من بعض الأصحاب يستحثه على الرجوع إلى الوطن ويرغبه عن المجاورة.

العربية ـ الإسلامية، ولكنهم لم يضيفوا جديداً للسلطة فضعفت وتهاوت أمام التسرب الأوروبي من جهة والزحف العثماني من جهة أخرى. وإذا كان العالم الإسلامي قد استرجع بعض المعنويات بسقوط القسطنطينية سنة 1453 (857 هـ)، فإنه سرعان ما ازداد انهياراً بسقوط غرناطة سنة 1492 (898). وإذا كان هناك دلائل على أن أبا عصيدة قد عاش الحدث الأول، فإننا لا نظن أنه قد عاش حتى شهد الحدث الثاني، ومما يلفت النظر أنه لم يتحدث عن «الملوك والأمراء» عندئذ في المشرق، ولكن تحدث عن أبي عمرو عثمان، الخليفة الحفصي بتونس. فهل هذا نـوع من الوطنية الإسلامية عنده؟ أو هو نوع من الحنين إلى الأهل والوطن وحتى الحكام؟ ولعل ما يؤكد هذا الحنين الدفين أن أبا عصيدة كـان يكثـر من كلمـة (الغـريب) في كتـابـاتـه. وهـا هـو قد عنون كتابه بهذا اللفظ (أنس الغريب وروض الأديب) وجعل عنوان رسالته إلى المشدالي (رسالة الغريب إلى الحبيب). وقال عن الكتاب الأول أنه ألفه ليكون «جليسي في خلواتي، وأنيسي في غربتي إلخ».

ومهما كان الأمر فقد علمنا أن أبا عصيدة كان زاهداً في الدنيا، كما يبدو من رفضه الرجوع إلى وطنه وإخلاصه في حب النبي (ﷺ) وعزمه على المجـاورة مهما كـان الحال المـادي والمعنـوي. وقد التقى وهـو بـالحجـاز بعلمـاء ذكـر بعضهم واصطحب البعض الآخر وتناقش مع جمع منهم وامتدحه فريق ممن حضـر ختمه للبخـاري. ومن هؤلاء عثمان بن إبـراهيم الطرابلسي الشامي. وقد جاء في كتب التراجم أن عثمان هذا

قرأ بالقاهرة وسافر منها سنة 856 إلى الحجاز رفقة شيخه الكمال ابن الهمام وسكن المدينة وأقرأ بها وأخذ بها عن السخاوي[1]. وقد نوه أبو عصيدة بالشيخ عثمان الشامي، كما عرفنا وروى عنه أخباراً عن المشدالي أضافها إلى ترجمته له.

4 ـ وصف كتاب (أنس الغريب وَروض الأديب):

يقع وصف هذا الكتاب من صفحة 69 إلى 73 من الرسالة. والكتاب يعتبر مفقوداً اليوم، ولولا الصفحات التي وردت عنه في الرسالة لما عرفنا عنه شيئاً. وقد ذكره مؤلفه عرضاً وذلك أنه أراد أن يخبر أبا الفضل المشدالي بأنه كان من أبرز من ترجم لهم فيه وإنه ترك بياضاً فيه لنماذج من شعره (المشدالي) ليكمل بها ما يملكه له من أشعار. «أطلب إليه الإسعاف بالتعجيل... بعض ما تيسر من دره النظيم... لأجمع شمله بأخيه اليتيم، وأطرز به كتابي المسمى (أنس الغريب وروض الأديب) المعدود من المواهب الكريمة، والفتوحات الجسيمة».

أما عن مكان تأليفه وترتيبه ومحتواه فيقول أبو عصيدة أنه ألفه أثناء مجاورته الثانية للحرم النبوي. ونفهم من ذلك أنه كتبه بعد زيارته للحجاز للمرة الثانية وعزمه على الإقامة هناك إلى أجل غير مسمى. ويقول عن ترتيبه أنه جعله في مقدمة وأبواب وفصول. والظاهر أن المقدمة من أبرز ما فيه نظراً لأخبار الرحلة التي

(1) انظر الضوء اللامع 125/5 ، وفيه أنه مولود بالشام حوالي 820 وتوفي بالمدينة سنة 893. ومعنى ذلك أن أبا عصيدة قد التقى به في المدينة بعد 856 وقبل 864 تاريخ وفاة المشدالي.

ضمنها فيها. فهو يقول: أما المقدمة فتتضمن أخبار «الرحلة» من مدينة تونس إلى المدينة المنورة مروراً بمصر (والقدس؟)، وقد ذكر أيضاً أنه تحدث في «الرحلة» عمن لقيه خلالها.

ويظهر من ذلك أن (أنس الغريب) يحتوي من جهة على رحلة المؤلف من تونس إلى الحجاز، وهو جزء وإن كان صغيراً (المقدمة) فإنه قد يكون مفيداً في بابه، ومن جهة أخرى فالكتاب يحتوي على مسائل علمية وصوفية مع ذِكْرِ العديد من المراجع التي استشارها. ولعل أبرز ما في هذا الكتاب أيضاً ما جاء فيه خاصاً بأبي الفضل المشدالي، إذ أن أبا عصيدة قد جمع أخباره من أفواه المعاصرين والمرافقين عندما كان أبو الفضل في الشام والقدس. وهو جانب تفتقر إليه ترجمته في الضوء اللامع. كما نعرف منه آراء المعاصرين في أبي الفضل مدحاً ونقداً. ولو عثر الباحثون على كتاب (أنس الغريب) لصحح لنا الكثير من أخبار العلاقات المغربية ـ المشرقية في القرن التاسع.

ومما يعطي لهذا الجزء من الكتاب صفة الرحلة قول أبي عصيدة: «وأَلْمَمْتُ عند ذلك حال الأوطان والأهل والجيران، ونبذاً من مآثر الأصحاب والإخوان، ثم من لقيت بطريقي في سائر البلدان، إلى هذا الأوان». وما دام الحديث موجهاً إلى أبي الفضل المشدالي فقد كشف له أنه تحدث أيضاً في الكتاب عن لقائه به «بالقاهرة المعزية، وترجمت كتابي بترجمته الفاخرة العلية، وكتبتها بالذهب الوهاج، ونشرت من ملابسها العجيبة حللاً تفوق ملابس الديباج، وجمعت فيها (أي الترجمة) من أوصاف المحاسن الفريدة كلما (كذا) اقترن في الأقاليم

والفجـاج، ومن الخصال الشـريفة كـل واضحة المنهـاج. . . وأَلْمَمْت فيها برحلته المغربية ثم المشرقية، وما اتفق فيها من الألطاف الخفية ومن أنواع الإفادات العلمية، والعجائب الحسية والمعنوية، القدسية منها ثم المكيـة ثم المدينة المشرفة ثم المصرية. وذكر بعض أشياخه المرضية، الجهابذة العلماء الأعلام أهل المراتب العلية والمقامات السنية.

«وطرزت ذلك بشيء من نظمه وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلاً ولا يحاوره إلا تعليلاً، ومع ذلك لا يخلو من كمال جمال يلوح على صفحاته، وهبّة طيب تَنِمُّ في نفحاته. وربما تحلت بدرره اللبات والنحور، وقصرت عن جواهره البحور، ولكن لم يحضرني منه إلا القليل لا يسدّ خلّة ولا يشفي غلة».

وواضح من هذا النص أن أبا عصيدة قد ترجم لأبي الفضل ترجمة وافية كما يعلم ذلك من سيرته في المغرب والمشرق. ونفهم من ذلك أن أبا الفضل قد زار القدس والحجاز (مكة والمدينة) بالإضافة إلى مصر، وإن له شيوخاً تلقى عليهم العلم في المغرب والمشرق أيضاً. وترك أبو عصيدة فراغاً في الترجمة حول شعر أبي الفضل وأخبر أن لديه منه القليل ورجاه أن يواصله ببعض شعره ليملأ به البياض المتروك.

وهناك جانب آخر تكشف عنه معلومات المقدمة أو (رحـلة) أبي عصيدة، وهو أنه ترجم فيها أيضاً لعدد آخر من الرجال، ذكر منهم أبا العباس (أحمـد؟) الأيدي، ثم من لقيـه بالحـرمين الشريفين «من الأخيار ومن ورد علي بهما ممن يتعين ذكره من الزوار وبعض ما اتفق من الأحـول (كذا) والأخبار».

أما بقية كتاب (أنس الغريب) «ففي أصناف التبتل في العبادات وأسرار الطاعات» ونفهم من ذلك أن جل الكتاب في التصوف، إذ يتحدث عن المريد وأداء الفرائض والسنن والنوافل والدعاء. وقد ذكر أبو عصيدة أنه ضَمَّنَ هذا القسم من الكتاب (سير شيوخ الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم وما أشاروا إليه من تواجدهم وكيفية ترقّيهم من بدايتهم إلى نهايتهم». وجاء فيه، كما يقول، بحكايات عجيبة وفوائد غريبة، وبشيء من النوادر والنكت والطرائف، كما جاء فيه بنبذ من كلام الحكماء ومن فرائد الأدباء والعلماء، وأضاف إليه محاسن لأهل الهوى والعاشقين... «لأن المطالعة في الكتب تستروح إليها النفوس، وتجد في مراجعتها والنظر إليها ما تجد في معاطاتها الكؤوس، فالكتاب خير جليس ونعم الأنيس».

وذكر أبو عصيدة أنه لم يقصد من كتابه (أنس الغريب) إلا أن يكون كذلك مجموعاً فيه من كل فن طرف، ولذلك لم يهذبه كما تهذب التصانيف الأخرى، ولم يرتبه كما ترتب التآليف المتقنة «وما قصدت به قصد التصانيف المهذبة، ولا التآليف المرتبة، وإن كنت قد أودعته من الفوائد ما لعله لا يحصره ديوان، ويعز وجوده عن ذي البحث والافتنان، ومن روائق الأشعار، وطرف الأخبار والسير والآثار وأمداح النبي المصطفى المختار...» ويظهر من ذلك أن قصد أبي عصيدة من كتابه أن يكون كتاب أدب وترويح وتربية روحية، وأن يكون، كما يقول، «جليساً في خلواتي وأنيسي في غربتي، ومذكّري في غفلتي».

وقد ذكر مصادر هذا الكتاب المفيُد فإذا هي غزيرة متنوعة،

جمعت بين كتب الدين والأدب والأخبار والتصوف، وقد بلغت أكثر من عشرين مرجعاً. منها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، ورسالة القشيري، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وقوت القلوب، وصفوة الصفوة، ومناقب الأبرار، وبستان العارفين، وربيع الأبرار، ورحلة ابن رشيد، والإحاطة لابن الخطيب، وكتاب آداب الدين والدنيا، وفردوس المحب، وسلاح المؤمن، والترغيب والترهيب.

وأخبر أبو عصيدة أن بعض علماء المدينة المنورة قد اطلعوا على (أنس الغريب) فأشادوا به. ومنهم فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي، وبعد وصفه بالعلم والتقى وتعاطي الأدب قال أنه (أي فخر الدين) جلس للإقراء في الحرم النبوي وكان حنفي المذهب، ومن تلاميذ شيخ الإسلام كمال الدين الهمام وهو الذي أجازه وأذن له في الإقراء. وكان أبو عصيدة يلتقي به في المسجد النبوي وفي بيته (أي أبا عصيدة) في أغلب الأحيان. وكان الشيخ الطرابلسي يعرف مقام أبي الفضل المشدالي ويحفظ كثيراً من أحواله وأقواله وأفعاله وأخباره، وكان أول من حظي بخدمة المشدالي «حين حلوله ببلدكم طرابلس الشام في رحلتكم السعيدة وسفرتكم، وما زلت أكرر عليه السؤال في ذلك حتى حصل أكثر مما عرفتني به من حال رحلتكم، فما قضيت منه العجب، وأثبته في ترجمتكم».

ومن أولئك العلماء الذين تحدث عنهم أبو عصيدة بعد لقائهم في الحرم، الشيخ أبو الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهري المصري الشافعي، الذي نعته بالأستاذ اللغوي. وقال إن والد

أبي الفتح كان رجلاً صالحاً من خدمة الجامع الأزهر. وقد جلس أبو الفتح أيضاً للإقراء بالحرم النبوي، وكان أيضاً من تلاميذ الشيخ الهمام وله منه إجازة في الإقراء والفتيا. وكان أبو عصيدة قد أنس به وجالسه وذاكره إلا أنه وجد أبا الفتح «مترام بنفسه إلى مدى يوجب لها من الحق ما يعد تطفيفاً في مكيال المعاملة، حتى ربما يوجب ذلك مكالمة ومقابلة...»

وقد كان لهذين العالمين موقف مختلف من ترجمة أبي الفضل المشدالي كما أوردها أبو عصيدة. فأما الشيخ فخر الدين «فطرب لها غاية الطرب، وقضى منها العجب» وأما الشيخ أبو الفتح فقد «حملته في الوقت حمية نفسانية» وقال لأبي عصيدة أن ما ذكرته ونسبته للمشدالي ليس في العصر من يتحلى به ولا من وصل إليه، وادعى أنه حتى إذا وقع ذلك فإن فلاناً أولى به «إذ ليس في المغارب والمشارق له نظير يضاهيه، ولا شبيه يوازيه أو يدانيه» وفضّل أبو عصيدة صاحبه المشدالي على هذا الشيخ الذي لا نعرف اسمه، ورد على الشيخ أبي الفتح بأنه لا يقول بذلك «إلا متعصب أو متعسف، أو جاهل بالمقام أو غير منصف».

5 ـ ترجمة أبي الفضل المشدالي:

واضح إذن أن أبا عصيدة قد ترجم للمشدالي وأطال في ذلك وجمع في الترجمة معارف غزيرة ونادرة، وبعض هذه المعارف عاشها بنفسه في بجاية والجزائر عامة، ثم في تونس ومصر والحجاز، وبعضها استقاه ممن عرفوا المشدالي في القدس وطرابلس الشام وغيرهما. ويبدو أن هذه الترجمة قد اشتملت

أيضاً على مجموعة من أشعار المشدالي المجهولة، ولكن ترجمة أبي عصيدة للمشدالي ستظل تمثل رأي أحد المعجبين فقط. ولا ندري كم هي مخالفة لترجمة المشدالي كما رواها ابن أبي عذيبة، وعلي السطي، وسعد بن الديري، والبقاعي، ذلك أن رأي هؤلاء المعجبين بالمشدالي أيضاً لم يصل إلينا إلا عن طريق السخاوي. وقد كان موقف السخاوي من المشدالي معتدلاً إلى حد كبير. فقد ذكر آراء مادحيه وآراء ناقديه. وحاول هو (السخاوي) أن يكون وسطا. وقد جاء في ترجمة السخاوي للمشدالي أن بعض النقاد كانوا يطعنون في مروءة المشدالي لأنه كان يتزلف الكبراء ويترفع على الأصدقاء والضعفاء. وإذا تأملنا سياق رسالة أبي عصيدة فإننا نجد في كلامه ما يؤكد هذا المعنى إذ طالما أشار أبو عصيدة إلى أن المشدالي كان يهمله رغم صداقته ووفائه له.

وها هو مختصر ترجمة المشدالي كما جاءت في الضوء اللامع مطولة. فقد ولد في بجاية حوالي 820، وبعد أن درس بها توجه إلى تلمسان للاستزادة من العلم وقضى بها أربع سنوات ثم رجع إلى بجاية سنة 844 فتصدر بها للتدريس ثم دخل عنابة وقسنطينة وتونس أواسط سنة 845. ومن تونس ركب البحر في مركب للنصارى من جنوة وتجول في قبرص وناظر أساقفتها ثم دخل بيروت ودمشق وتجول في طرابلس الشام وحماه، ثم سكن القدس سنة 847 وشاع ذكره فيها، وأدى فريضة الحج سنة 849 وجاور ثم رجع إلى القاهرة مع الكمال بن البارزي وهو من أعيان أهل الدولة في مصر فازدادت حظوة المشدالي لدى أرباب

السلطة، وتصدر للتدريس في عدة فنون ولا سيما الفقه المالكي الذي حضر السخاوي بعض دروسه فيه سنة 852. وبعد أن مدحه السخاوي بما يشبه أخلاق كبار العلماء ونوادر الحكماء إذا هو يقول عنه: لكنه كان مُخِلَّ المروءة، كثير الترفع على أصحابه عند اجتماع الناس، وكان عظيم التهاون بهم عديم النفع لهم، لين الجانب لمخالفيه. وهو حكم يؤكده فعلًا عتاب أبي عصيدة للمشدالي في رسالته له. والغريب أن السخاوي جمع آراء معاصرة تبدو متناقضة في شخصية وعلم وأخلاق المشدالي كقوله عنه: إنه كان أعجوبة الزمان حفظاً وفهماً وتوقداً وذكاء وعلماً وخبثاً ومكراً ودهاءً وتواضعاً وكبراً، إلخ. ومن ذلك رواية السخاوي أن المشدالي خرج من بجاية مغاضباً لأبيه وبغير رضاه. وهو ما تشير إليه مناقشة أبي عصيدة مع بعض علماء المدينة حول المشدالي أيضاً، كما سنرى في آخر المخطوط.

وتلقي محاورة أبي عصيدة مع بعض علماء المدينة حول المشدالي الضوء أيضاً على ما جاء في ترجمة السخاوي له. فإذا كان أبو عصيدة قد ذكر رأي بعض تلاميذ كمال بن الهمام في المشدالي، فإن السخاوي قد أورد رأي ابن الكمال نفسه فيه. وبناء عليه فإن ابن الكمال ينصح بعدم حضور دروس المشدالي، لأنه ليس فيها ما ينتفع به، وينبغي أن لا يحضر دروسه إلا حذاق العلماء. ويبدو أن المشدالي كان مثيراً للجدل بين العلماء، فهذا الزين قاسم الحنفي يعلن أنه لم يسمع العلم أبداً من مثله. ويتفق مع هذا الرأي أيضاً الأمين الأقصرائي. أما الشهاب الأيدي فقد كتب إلى والد المشدالي يعرفه مكانة ولده بالمشرق فقال «دانت له المملكة المصرية والأقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية، فحاز

الرياستين وقام بالوظيفتين». وهذا الرأي يتفق تماماً مع ما كتبه أبو عصيدة عن أبي الفضل المشدالي حتى كأن شهاب الأيدي قد استعار منه ألفاظه.

ومن تلاميذ المشدالي في الحجاز البرهان بن ظهيرة، وفي الشام ابن قاضي عجلون، وفي القدس الكمال ابن أبي شريف، وفي القاهرة الشهاب البيجوري والديسطي وابن الغرز. وكان المشدالي معاصراً لعدد من الأعيان منهم الكمال بن البارزي الذي يبدو أن المشدالي قد استغل نفوذه لصالحه، فحقق به أغراضه العلمية والسياسية. فقد استعان به على قاضي المالكية البدْر بن التنسي وجرّأ عليه الديسطي. ويقول السخاوي أن المشدالي والديسطي أخذا معهما الشهاب الأيدي ليتقويا به لذيوع صيته ووفرة علمه وتدينه ونزاهته. وذلك حين توقف ابن التنسي في إصدار حكم القتل على الكيمياوي المنتسب للشرف، حتى قتل[1]. ويصفه السخاوي بأنه (المشدّالي) كان قد جاب المدن والقرى، وركب البحر والبر. واطلع على أنحاء مختلفة وتشكل في هيئات متنوعة، إلى أن أدركه الموت في عنتاب (عين تاب) سنة 864 في الأربعينات فقط من عمره. وربما لو طال الزمن بالمشدالي حتى بلغ السبعين أو أكثر لكان له دور أكثر قوة وخصوم أشد حسداً وغيرة[2].

---

(1) يذكر السخاوي في الضوء اللامع 152/11 أن هذا الكيمياوي ما هو إلا أسد الدين العجمي الذي قتل سنة 853.

(2) السخاوي، الضوء اللامع 180/9. وللمشدالي أخ، يدعى محمداً كاد يضاهيه علماً، مات أثناء الحج سنة 859. انظر نفس المصدر 188/9. أما السخاوي فقد عاش بين 831 — 892، وقد حج عدة مرات وجاور.

وقد التقى المشدالي، وهو بالمشرق بالعديد من علماء المغرب أثناء أدائهم لرحلة الحج المعروفة وإقامتهم بعض الوقت للمجاورة في الحرمين أو لطلب العلم في القاهرة. ومن هؤلاء علي القلصادي الرياضي الشهير، الذي استعاد مع المشدالي في القاهرة ذكريات دراستهما على علماء تلمسان. كما يظهر أنه التقى فيها بالعالم التونسي محمد التريكي الذي أخذ عن ابن حجر، ولكننا لا نعرف أنه أخذ عن المشدالي. والشيخ التريكي هـذا كان أيضاً محظي ابن الهمام[1]. والتقى المشدالي في مكة بالشيخ محمد القفصي، وقد ورد اسم الشيخ القفصي في (رسالة الحبيب) لأبي عصيدة، وكذلك أسماء الشهاب الأيدي، وابن الهمام والزين قاسم الحنفي ومحمد التريكي وأحمد القروي وابن زغدان وغيرهم. ومن ثمة يظهر ما لمخطوطة (رسالة الغريب) من أهمية في إلقاء الضوء على حياة أبي الفضل المشدالي ومعاصريه.

6 ـ أقسام (رسالة الغريب إلى الحبيب):

ونود الآن أن نذكر أقسامها للقارىء وهي:

1 ـ القصيدة التي افتتح بها أبو عصيدة الرسالة، والتي أشاد فيها بشخص أبي الفضل المشدالي وبمكانته العلمية والتي ذكّره فيها بما كان بينهما من ود وذكريات أيام لقائهما في بجاية والقاهرة والحجاز.

---

(1) عن محمد التريكي انظر الوزير السراج، الحلل السندسية، جـ 685/3.
وقد توفي التريكي سنة 892.

2 ـ الاستهلال نثراً لبيان كون الرسالة ما هي إلا جواباً على خطاب وصله إلى المدينة من المشدالي بالقاهرة، وجاء في الاستهلال أيضاً ذكر والد المشدالي والإشادة بعلمه أيضاً، وقد كتب المؤلف اسمه كاملاً في الاستهلال، وهو أحمد بن أحمد البجائي الغساني المعروف بو عصيدة.

3 ـ تحدث أبو عصيدة عن رحيله من مصر إلى الحجاز، ووصف حالة فراق صاحبه المشدالي، وذكر طلبه المراسلة من صاحبه وتأكيد المشدالي على الاجابة. وأخبر أبو عصيدة أنه ظل يدعو لصاحبه منذ وصوله إلى الحرم، وفاء له وشوقاً إليه.

4 ـ تَذْكيرُهُ بعدد المراسلات التي كاتبه بها دون أن يتلقى منه جواباً: أولاها عرفه فيها بكل ما وقع له منذ تفارقا في مصر، وهي المراسلة التي وجهها له مع شيخين هما مفتاح وقاسم[1]. وثانيهما مراسلة أدبية اشتملت على أخبار مغربية ومشرقية، ولم يذكر مع من وجهها إليه، وثالثها مراسلة وصف له فيها مرضاً حل به وكاد يؤدي به من حمّى وغيرها ثم شفائه من المرض، لم يذكر أيضاً مع من أرسلها له. ورابعها لم يتحدث عن موضوعها ولا عن حاملها ولكنه أشار إلى أنه كان يهدف من ورائها إلى مواصلة الود والتراسل بينهما.

5 ـ حين لم تصله أخبار المشدالي في مراسلة منه، أخذ يسأل عنه الركبان والحجيج ويتطلع إلى أخباره. وما زاد أبا عصيدة حرجاً أن بعض العلماء في المدينة أخذوا يسألونه عن

(1) الغالب أنه يقصد الزين قاسم الحنفي الذي كان معجباً بالمشدالي، كما مر بنا. الضوء اللامع 180/9. أما (مفتاح) فلم نهتد إليه.

المشدالي لأنهم يعرفون صداقتهما ويقولون له في أكثر من مرة: هل وصلك منه جواب أخيراً؟ وقد أصبح أبو عصيدة يحاول إيجاد المبررات للسائلين وهو يفتعلها افتعالاً. ثم أخذ أبو عصيدة يعاتب المشدالي على سكوته لأن الخليل لا يجفو خليله. فلما عدم الجواب من المشدالي عاتبه بقسوة. وأرسل العتاب مع الشيخ علي التواتي[1]، صديق الصديقين، وبالخصوص المشدالي الذي يعرف أن الشيخ من أهل الخير وهو يقدره حق قدره. والعبارة المنقولة إلى المشدالي ليست صحيحة في ألفاظها ولكن في معناها، ثم أن أبا عصيدة قد ضاق صدره من جفاء المشدالي فقال ما قال.

6 ـ ثم جاءت رسالة المشدالي إلى أبي عصيدة بعد انتظار طويل وعتاب حار، وتضمنت ثلاثة أبيات، كلها عتاب أيضاً على العتاب. فما كان من أبي عصيدة إلا الإكثار من الاعتذار على ما فهم المشدالي من العبارة المنقولة إليه مع الشيخ التواتي.

7 ـ ذكره أبو عصيدة بوعده عند الافتراق بالقاهرة بزيارة الحجاز ثانية والإقامة فيه مدة أطول من المرة السالفة. وأخذ أبو عصيدة يعد الناس بقرب حلول المشدالي بالمدينة فأصبحوا من المنتظرين له ولكنه لم يأت. أخبره أن أهل المدينة لم يحصل لهم ما حصل لجيران مكة وبيت المقدس عند زيارة المشدالي للمدينتين. وها هم جيران قبر الرسول (ﷺ) يرون أنهم أولى بالاستماع إلى دروس المشدالي. ثم أخذ أبو

(1) لم نعثر على ترجمة لحياته.

عصيدة يتخيل وهو في حالة استغراق أدبي، وجود المشدالي بالمدينة مدرساً بالحرم ناشراً للعلم والناس من حوله. ثم أفاق من استغراقه وأخذ ينصح المشدالي بتنفيذ وعده ونيته وعدم الاغترار بما هو عليه من النفوذ والنعمة في القاهرة.

8 - وصف أبو عصيدة حالته في الحجاز قائلاً أنه في المدينة المنورة وهو يحمد الله ويكثر الدعاء لصديقه. وجاء بأبيات تؤيد لماذا اختار الهجرة والمجاورة بالحرم على البقاء مع الأهل والوطن. وبعد أن وصف أبو عصيدة راحته النفسية، أخبر أنه كان يقرىء البخاري والشفا وغيرهما كل رمضان في الروضة الشريفة وإن جمعاً من الفضلاء والعلماء والزوار حضروا ختمه للحديث الشريف، وإن بعضهم ألقى بهذه المناسبة شعراً، كما نظم أبو عصيدة قصيدة مديحية أيضاً. وهي القصيدة التي جمع فيها بين مدح الرسول (ﷺ) ومدح الخليفة الحفصي أبي عمرو عثمان. وبهذه المناسبة خاطب أبو عصيدة صديقه المشدالي قائلاً أن له كثيراً من الشعر ضمنه رسالته (رسالة الغريب) ولكنه لم يضع اسمه إلى جواره تواضعاً منه، بخلاف قصيدته النبوية التي بلغت 59 بيتاً. ولكنه استدرك فقال أن شعره لا يخفى على المشدالي في الرسالة.

9 - مراسلة من تونس بعث بها أحد أصحاب أبي عصيدة بواسطة الشيخ أحمد القروي، يستحثه فيها على الرجوع إلى وطنه لأن المجاورة غير مطلوبة شرعاً والانقطاع عن الأهل مسبب للفقر ومدعاة للغربة والحاجة. وقد رد أبو عصيدة عما جاء في المراسلة نقطة نقطة مستشهداً بالنثر والشعر والآثار، وبرهن

على أن الهجرة أفضل عنده، وقال إنه غني بالإيمان وإنه وجد في مجاورة الحرم النبوي كل ما يبغي، رغم أنه جرب الحنين إلى الوطن سابقاً.

10 ـ أثناء رده على مراسلة تونس ذكر أبو عصيدة فوائد تاريخية هامة، منها أنه سبق له الحج والإقامة أعواماً بالحجاز، ثم رجع إلى وطنه عبر تونس. وأخبر المراسل بأنه قد نزل بتونس وسأل عن أهله وأصدقائه وشيوخه في بجاية فأخبروه عنهم بأنهم قد ماتوا جميعاً، فحزن عليهم وعرف أن الديار قد خلت منهم، فانثنى راجعاً من تونس إلى الحجاز ماراً بمصر. وعدل عن الوصول إلى بجاية. وها هو يحس بنعمة ما بعدها نعمة في الحضرة النبوية غير ملتفت لشؤون الدنيا.

11 ـ كان دائم التشوق إلى أخبار المشدالي، فوجد صديقه الشيخ الزيني (قاسم الحنفي؟) متوجهاً إلى القاهرة فطلب من أبي عصيدة إذا كانت له رسالة أو وصية يحملها عنه إلى المشدالي. فلم يكتب أبو عصيدة ولم يوص، ولكن الزيني فهم المراد منه. ولما رجع الزيني من القاهرة إلى الحجاز لقيه أبو عصيدة واستطلعه أخبار المشدالي فإذا هو قد جاءه برسالة منه، وهي الرسالة التي استوجبت رد أبي عصيدة الذي سماه (رسالة الغريب إلى الحبيب). وقد عبر أبو عصيدة عن فرحته الغامرة عند تلقيه رسالة المشدالي بعد طول انتظار.

12 ـ بعد المعاتبة أخذ أبو عصيدة في تحليل ألفاظ رسالة المشدالي وشرح الأبيات الثلاثة العتابية التي ضمنها المشدالي رسالته. وأورد أبو عصيدة في ذلك أشعاراً غزيرة

تدل على محفوظه وحسن اختياره، وبعض هذه الأشعار من إنشائه. وذكر ما كان الغشدامي أبو عثمان[1](؟) ينشده من ألحان ثم سمط أبو عصيدة أبيات المشدالي وزاد عليها بيتاً رابعاً. وفهم من الأبيات أن المشدالي يقول له: عفا الله عما سلف. واعتذر للمشدالي عما قد يكون وجد في عتابه من سوء الظن أو الفهم لمراده. إذ إن أبيات المشدالي فيها معانٍ ورموز خفية. وبعد أن شرح الأبيات الثلاثة شرحاً أدبياً (من ورقة 65 إلى 68) قال أبو عصيدة أن الغرض هو «الاتحاف بفوائد شرح معانيها العجيبة».

13 ـ أخبر أبو عصيدة صديقه المشدالي بأن له كتاباً سماه (أنس الغريب وروض الأديب) جمعه مدة الهجرة الثانية إلى الحجاز، وأنه قسمه إلى مقدمة وفصول، ثم ذكر محتوى كل ذلك باختصار، وتحدث عن منهجه في هذا الكتاب وعن مراجعه فيه، وعن ترجمة المشدالي وغيره فيه، وطلب منه أن يرسل إليه بعض أشعاره ليضيفها إلى الترجمة لأنه ترك فيها بياضاً لأجله. ويعتبر هذا القسم من الرسالة هاماً جداً ليس فقط لأنه يتحدث عن كتاب مفقود لأبي عصيدة وهو (أنس الغريب) ولكن لأن جزءاً من هذا الكتاب تضمن وصف (الرحلة) التي قام بها أبو عصيدة من بجاية وتونس إلى الحجاز عبر مصر.

14 ـ في (رحلة) أبي عصيدة التي ساقها في كتابه (أنس الغريب) حديث هام عن أسرة المشدالي ومكانتها العلمية في بجاية،

(1) لم نعثر له على ترجمة.

وعن انتقال المشدالي من تونس إلى مصر إلى فلسطين وطرابلس الشام والحجاز، وعن مكانته في مصر، واختلاف الرأي العام حوله، وعن بعض إنتاج المشدالي من الشعر والنثر. ويقع الحديث عن كتاب (أنس الغريب) في الرسالة من ورقة 69 إلى ورقة 73 .

15 ـ تنتهي الرسالة بدون تاريخ ما عدا ذكر شهر شوال. وقد تَصَوَّر أبو عصيدة كأن الرسالة خجلة من الوقوف عند المشدالي فقال لها لا تخافي لأنك منه ظل ظليل، وأخبرها بأن لا تكثر الكلام عنده وأن لا تطلب منه الجواب وإنما تطلب فقط بيان أسرار الأبيات وما تيسر له من بنات الأفكار.

7 ـ خلاصة (رسالة الغريب إلى الحبيب):

رأينا أن نسوق خلاصة الرسالة بألفاظ مؤلفها في أغلب الأحيان ليطلع القارىء على أسلوبه ومعانيه وهدفه منها. وهي، كما ذكرنا، رسالة أدبية أكثر فيها من السجع والطباق والجناس وكل أنواع المحسنات، وهي المحسنات، التي تميز بها العصر المملوكي في المشرق والأدب الأندلسي، وأظهر فيها كذلك محفوظه من التراث الشعري والنثري. وتحتوي، كما ذكرنا، أيضاً على حوالي 75 ورقة.

ولم نلجأ إلى نشر الرسالة بنصها الكامل الآن لعدة أسباب منها، أننا لا نملك إلا نسخة واحدة، ومنها أن المؤلف استطرد كثيراً فجاء بالأشعار الوفيرة، والنثر الفضفاض والعبارات المكررة المعنى وإن اختلفت ألفاظها. ومنها أن في الشريط (الميكرو

فيلم) بعض الطمس لصورة بعض العبارات نظراً لقدم المخطوط، ولعل العبارات يمكن قراءتها في الأصل ولكنها غير واضحة في الصورة. ونود أن نلاحظ هنا بأن طمس تلك العبارات لم يؤثر على الخلاصة التي نذكرها هنا ما عدا اسماً أو أكثر نبهنا عليه في مكانه بعلامة(؟) أو في الهامش. ولعل غيرنا يريد أن يحقق هذا المخطوط ذات يوم، خصوصاً إذا عثر على نسخة أخرى منه.

وطريقتنا في عرض هذه الخلاصة هي ترك المؤلف يتحدث بعبارته دون تدخل منا فاذا ظهر لنا تعليق أو ربط وضعنا تدخلنا بين قوسين ( ). أما علامات الحذف من النص فهي ثلاث نقط هكذا(. . .). والحذف يكون عند الاستطراد بالشعر لتأكيد نفس المعنى، أو للاستطراد بالنثر المسجوع ومن ثمة يكون المحذوف شطرة أو أكثر من السجع. وقد يكون الحذف بسبب عدم وضوح عبارة أو اسم في صورة المخطوط. وفي هذه الحالة فإننا لا نضع نقطاً ولكن ننبه على ذلك بين القوسين. أما بصدد الشعر فالواقع أننا لم نذكر منه إلا البيت أو البيتين أو القطعة المتصلة بالمعنى مباشرة والضرورية لفهم اسم أو حالة أو نحو ذلك. أما الشعر الاستطرادي أو الذي يؤكد المعنى فقط أو الذي يفرضه السياق الأدبي وإظهار قوة الحفظ، فقد استغنينا عنه رغم جماله أحياناً.

* * *

وإليك الآن كلام أبي عصيدة البجائي مقدماً قصيدته بين يدي رسالته إلى أبي الفضل المشدالي:

هــذي مــراسلة العبــد الفقيــر إلى
كهف الأنام وفخر الـوقت والسلف[1]

أتتــه تنشـر مــا قــد حــاز من شيم
ومن جــلال ومن عــز ومن شــرف

وأن تــذكـر أيــامــاً بــه ســلفــت
لله مــا كــان أحــلاهــا لـمعتــرف

وأن عبــدهم [2] لم ينس عــهــدهم
وليس ينسى عهــود المحسنيـن وفي

ولـم يــزل ذكــرهم شــوقــاً يـميـله
كمــا تميـل غصـون البـان من هيف

ونــحــو (طيـبــة) تثـنيــه عــزائـمـه
لمــا حكتــه من الألقــاب والتـحف

ومــا (بمكـة)[3] من أيــامــه سلفت
كانت من الحسن فوق الوصف إن تصف

أتتــك[4] من بلد المختــار أن بهــا
من استجار من الزلات عنه عفي . . .

(1) العبد الفقير هو أحمد البجائي، وكهف الأنام هو أبو الفضل المشدالي.
(2) أكثر أحمد البجائي (أبو عصيدة) في رسالته من: ذكر العبد وعبدكم والمملوك إلخ. تواضعاً وتقرباً لصديقه أبي الفضل المشدالي.
(3) يشير بطيبة (المدينة المنورة) وبمكة إلى أن المشدالي قد قضى بهما وقتاً قبل استقراره بالقاهرة.
(4) يشير إلى المراسلة التي كتبها من المدينـة المنورة وبعث بهـا إلى المشدالي في القاهرة. والظاهر أن القصيدة كتبها أبو عصيدة بعد الانتهاء من تحرير (رسالة الغريب) وجعلها مقدمة بين يدي المراسلة كلها.

فانظر إليها بعين الصفح عن زلل
واجعل تصفحها من جملة الكلف
بقيت بالأمْنِ في عز وفي دعة
وفي هناء وفي سعد وفي ترف
ما حن والله، قلب من تذكّره
وما تأوه مشتاق من الأسف

* * *

الحمد لله الذي فتح بمفاتيح العقول أقفال الأفهام، ورفع حجب السرائر حتى ظهر ما كان محجوباً في صدور أهل المحبة والغرام، وبصر البصائر بحقيقة ما ترمزه الشفاه وتضمره الأوهام، وجعل رقوم الأقلام تغني عن المشافهة بالكلام، عند تنائي الأشخاص وتباعد الأجسام... وبعد فهذه رسالة عبد محب شائق غريب، جواباً عن مشرفة[1] صدرت من مالك ماجد سيد حبيب، كتبها وهو قائم على قدم ولائه، مقيم على ما يجب عليه من رفع دعائه، من حضرة النبي المصطفى - ﷺ - وعلى آله، نائباً عنه في تقبيل الصباط الكريم، كافلة بوصف أحواله الحالي منها والسقيم، صادعة بالثناء الصميم، والشكر الدائم المقيم، أولها:
...

أسعد الله تعالى المقام العلي[2] مقام سيدنا ومولانا الشيخ

---

(1) المشرفة يعني بها الرسالة التي جاءته من المشدالي وكانت الباعث لأبي عصيدة على كتابة (رسالة الغريب).

(2) يستعمل أبو عصيدة ألقاب الملك وألقاب العلم للمشدالي، وهو يكثر من ذلك في رسالته.

الإمام... سيد فقهاء الإسلام.. ذي المفاخر العلمية... والغرائب الحكمية، والمحاسن الجليلة الأدبية، والنكت الرائقة الزكية، التي سبائكها مصرية، ومعادنها مغربية[1] السيد الفقيه الجليل،... سيدي أبو الفضل محمد ابن سيدنا ومولانا الصدر الجليل الخطيب الرحلة... الشهير الحسيب، شيخ شيوخ الإسلام.. الولي الصالح... سيدي ومولاي أبو عبد الله محمد المشدالي ابن السادات الأيمة العلماء.. منهم واصل الغاية، والمستقل الآن برفع الراية... السيد المخاطب[2]... وماذا عسى أن أقول في إمام الأيمة...

سلام كريم، طيب عميم... من العبد الفقير، المعترف بالعجز والتقصير راعي حقوق محبتكم الأكيدة، ومقبل الكريمتين الفاضلتين يديكم السعيدة (كذا) أحمد بن أحمد شهر بوعصيدة، البجائي المنشأ والدار، الغساني الأصل المدني الآن القرار، نزيل الحرمين الشريفين، والحضرتين الكريمتين لطف الله به...

معرفاً بوصول مشرفه العزيز، المتضمن أرواح المعاني بألفاظ المختصر الوجيز... فتلقيتها (كذا) بما يجب أن يتلقا (كذا)، وأديت من السرور به من بعض ما كان علي حقاً...

وأما ما عند المملوك من ذلك فإنه لا ينساكم ولا بعد الممات... إذ من المحال، أن يخطر النسيان له ببال... وكيف

(1) يشير إلى إقامة المشدالي بمصر وإلى أصوله الجزائرية (المغربية).

(2) واضح أن أبا عصيدة يشيد بمكانة الأسرة المشدالية في العلم، وسيعود إلى هذا الموضوع في نهاية الرسالة أيضاً عند حديثه عن كتابه (أنس الغريب).

أنسى ذلك المجد الصميم والعهد الكريم. . .

وما اهتدى به سيدي في أمر الجواب، وقضية ابن سلام[1]. . . في أمر الكتاب. . . فقد قبل عذركم في ذلك القائل وأبدع في مقاله، وأحسن ما شاء في شرح حال محبوبه وحاله، بقوله:

سامحت كُتْبَكَ في القطيعة عالماً
أن الرسالة لم تجد مِنْ حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه
يسري ويصبح دوننا بمراحل

وأما قول سيدي، أعاذه الله من الحقد والغضب، ووقاه طوارق الجفا والنصب، أن الشيخ علي التواتي[2] بلغكم عن المملوك عتاب، فيه خشونة في اللفظ وشدة في الخطاب، بل والله إنما كانت كلمات خفيفات صدرت عن فكرة ضئيلة، من نفس عليلة، وعين المحب عمن يحب كليلة، فالعبد يخبركم عن موجب ذلك العتاب. إذ لا سرّ دونك ولا حجاب، بعد أن أطلب من سيدي ومالكي أن يجعل لي وكيلاً من نفسه يقوم لي عنده بحُجَّتي وعُذري، ويخاصمه إلى الأمير في قصتي وأمري. . . فإن أنصف واعترف فهو (أبو الفضل) حقيق، وإن عاتب أو ناقش فإني

---

(1) لم نهتد إلى المقصود من هذه الإشارة التي يبدو أن رسالة المشدالي هي التي أثارتها.

(2) لم نجد له ترجمة، رغم أن نسبة التواتي موجودة. والظاهر أن علي التواتي هو أحد الحجاج الجزائريين (أو المغاربة عموماً). وفي بجاية زاوية مشهورة باسم زاوية التواتي ترجع إلى القرن التاسع (15 م).

بذلك خليق. . . فاسمعني ساعة، وأعر لي أُذْنَ منصفة سمّاعة، فإني يعلم الله، أبثك خبري، ولا أخفي عليك شيئاً من أمري.

وذلك إني لم أزل من حين فراقك من بلاد المغرب[1]، أرتاح إلى أصل الإلمام بحضرتك ارتياح الصادي لبرد الشراب، وأشتاق إلى مواصلتك اشتياق المسافر للإياب، . . . فلما ظفرتني الأيام بلقائك، وأسعفتني الأيام بالْتِمَـاحِ نور سنائك (شعر) فحصل لي بذلك خبراً(؟) عظيماً (كذا)، وعاد لي من الأنس ما كان ميتاً رميماً، ورأيت في ذلك أول الفتوحات السنية، وبواكير المسرات الهنية، وعنوان بركات الرحلة المباركة المشرقية[2]. فحمدت مولى الموالي، على ورود هذا المنهل العذب الزلال، وأقبلت إقبال الحريص، وأقمت مقاماً لم يكن عنه نويص(؟) وألممت بشرف المقام، وانخرطت في سلك العبيد والخـدام، فقمتم حفظكم الله بالمملوك أحسن قيام، وقابلتم بما يليق بمقامكم العلي من المبرة والإكرام، ورفعتم قدره ومنزله، وأعذبتم منهله ومورده، وأعززتم جانبه. . .

ومـا زال يشمله البر منكم والإحسـان، والتلطف والامتنان بالزيارة في كل أوان، والتعاهد في أكثر الأحيان، والاعتناء الذي

---

(1) الظاهر أنه يعني ببلاد المغرب الجزائر (بجاية)، وقد يكون يعني تونس. ونفهم من العبارة عموماً أن أبا عصيدة والمشدالي كانا على صلة منذ وجودهما بالجزائر ثم التقيا ثانية في مصر، كما تشير العبارات اللاحقة. والظاهر أنهما لم يلتقيا في الحجاز، لأن تاريخ حج كل منهما مختلف عن الآخر.

(2) يشير إلى رحلته هو، أي أبا عصيدة إلى المشرق، أو رحلتهما معا.

يقصر عند اللسان. (شعر)... تنادمنا بلطائف تطرب الأسماع، وتتحفنا بفوائد جليلة الانتفاع،... أقسمت أيها المولى الذي زيارتُه الأُمنية، والعارفة السنية، لو خُيّرتُ بين رجع الشباب يقطر ماء ويزف نماء،... وبين قدومي عليك والمثول بين يديك لاخترت المثول (شعر)... ولا كيوم الأخ في الله الفقيه أبي عبد الله محمد بن زغدان[1] حين خلع ثيابه وجلس عريان، وخلع العِذار... وباح بما عنده من الأسرار، لما جلتها علينا بعض عقائلك الحسان، (ثم ذكر مكانته في المشرق في الأدب والنظم والمعاني، الخ.)... وكان يوماً مشهوداً، والشيخ الإمام العلامة... أبو العباس اللبنى[2] (؟) فيه من الشهود، فيا له من يوم!... ولم نزل نتمتع فيه بكل مطلوب، إلى أن أذنت الشمس للغروب، فتأهب السيد المولى لمعاده، وعلا على ظهر جواده، وودعنا وسار، وخلف لنا الشوق والإدكار،... (شعر).

---

(1) جاء في كتاب الحلل السندسية للوزير السراج 668/3 أن ابن زغدان كان أحد تلاميذ عمر القلشاني. وقد توفي سنة 848. والظاهر أنه كان أحد المتصوفين الذين كانت أخبارهم شائعة في تونس والمغرب العربي قبل هجرة أبي عصيدة والمشدالي إلى المشرق. وجاء في نفس المصدر أيضاً أن ابن زغدان كان زميلاً لمحمد التريكي في التتلمذ على الشيخ القشاش.

(2) جاء هذا الاسم مكتوباً في عدة صور الليدي، والأيدي واللبدي والأبدي واللدى. ويبدو أن هناك خطأ في الرسم. وتارة يذكر على أنه الشهاب، وتارة أبو العباس. ونرجح أن يكون كل ذلك لواحد هو أحمد بن علي بن اللدي كما جاء في الضوء اللامع 19/2. المولود والمتوفي ببيت المقدس 825 - 880.

فشكر المملوك عاجز عن مجازاة منح مولانـا ومعارضتـه، واعترافه بالقصور عن مناهزة فواضل بـره ومناهضتـه، بل لـو استطعت تمثيل شكرك ومدحك، وتصوير خلالك المرضيـة، وحمدك، لأبرزت ذلك في صورة تروق النواظر، ولأفرغـته في قالب يسر القلوب والخواطر، فها أنا لا أطيق ذلك. .

ولـو كـان لي في كـل منبت شعـرة
لسـان يـطيـل الشكـر فيـك لقصّـرا

. . . (نثر وشعر) لا زالت الأيدي بالدعاء إليك مرفـوعة، والصروف منصرفة عن جنابك مدفوعة، وفضائلك ذائعة شائعة مسموعة.

(وبعد أن أشار إلى أنهم كانوا خلال الليل يتبادلون الحديث في المسائل اللغوية والحديث الشريف، قال) وربما انتهى الذكر بنا إلى ذكر الطبقة العليا من أهل الزمان، أصحاب الغرائب والعجـائب والمعـاني والبيـان، مثـل الإمـام الغشـدامي[1] والمزف[2] (؟) وبيلج[3] ومصرانه[4] وما شاكلهم من الإخوان.

---

(1) الغشدامي أبو عثمان ـ سيذكره أبو عصيدة كذلك بعد حين. لم نجد له ترجمة.

(2) كذا، ولعله يقصد ابن الغرز الذي ذكره السخاوي في الضوء اللامع 105/10 على أنه محمد الشمس بن الغرز القاهري الشافعي، وقال عنه أنه اشتغل فترة بالعلم (؟) ثم تزهد. ومات صغيراً حوالي ثلاثين سنة من عمره وذلك حوالي سنة 870.

(3) لم نجد له ترجمة. ويبدو أنه كان من ملازمي المشدالي مثل ابن الغرز.

(4) كذلك لم نعثر له على ترجمة. وقد يكون من تلاميذ المشدالي الذين عاصرهم أبـو عصيدة عنـدما كـان بالقـاهرة. والأربعـة المذكـورون =

وكلامكم في كل ذلك السحر الحلال. . . (نثر) ولا بيننا ثالث غير شمعة، وقد وقفتْ بين يدي السيد المالك في الخدمة، وأجرتْ خوف الفراق الدمعة، . . .

لـهـا مـقـلة هـي روح لـهـا
وتـاج عـلىء هـيئـة الـبـرنس
إذا غـازلـتـهـا الـصـبـا حـركـت
لـسـانـاً مـن الـذهـب الأمـلس

(ومضى يذكره بتلك الليالي وما كان يدور بينهما فيها من ود صاف. وأنشد لنفسه في ذلك بعد نثر، أبياتاً منها:)

من كـان بـالـراح والـريحـان مشتغـلاً
فـإنني بـالـرضـا والـوصـل مشتغـل
ومهمـا يكن خائفـاً من سكـره ثمـلاً
فنشـوتي من مـدام مـا لهـا ثمـل
لـلـنـظم والـنـثـر والآداب دائـرة
عـلي خمـراً بـهـا أسقـي وانتـقـل
هـذا لـعـمـرك شـيء لا يـلذ لـه
إلا الكـرام ولا يـرضى بـه السفـل

ولم أزل في أنس وافر وطيب أنفاس، لولا ما عراني بعض وسـواس، من مراقبـة أبي عبـد الله محمـد القفصي[1] وخبـر

= (الغشدامي، وابن الغرز، وبيلج ومصرانه «وما شاكلهم من الأخوان» هم الذين عناهم أبو عصيدة بقوله «الطبقة العليا من أهل الزمان».

(1) لعله يشير إلى محمد بن عبد الله القفصي المعروف بابن راشد، نزيل =

النحاس[2] الذي قال في مثله أبو نواس:

أقـول لـه من طيشته رياستـه
رويدك لا تعجل فقد غلط الدهر
تسـود بـلا علم ولا طيب مـولـد
ولا عن رضا قوم فهذا هو الكفر
تصبـر فـان الـدهـر فيـك مـدجن
ولا سـدت إلا والـزمـان لـه غـدر

وقد استعذر وأناب، واستغفر الله مما جاء وتاب... (نثر وشعر).

(وتذكر المؤلف الحجاز فأخذ في الاستعداد للرحيل والوداع قائلاً) فقمت مبادراً للوداع متهيئاً للرحيل، وأنا من عجب أمري في عريض طويل، إنْ سطا عليّ ألم البين وفتّ في كبدي فتحت له صدراً، وإن استفزني الطرب إلى دار الحبيب ودعاني مرة لبيته عشراً، فالقلب مطار من شدة الأشواق، والدمع مدرار من ألم الفراق... وأقبلت مودعاً لسيدي داعياً لأيامه، عاكفاً على لثم أياديه وأقدامه، وأنا متمثل لبيتين لبعض العشاق، في التعلل بالفراق بالتلاق، وهما:

= تونس وشارح ابن الحاجب. وقد درس بتونس وفي القاهرة والإسكندرية. ومن شيوخه ابن دقيق العيد، وتولى القضاء بمصر وألف كثيراً. كان حياً زمن نزول أبي الحسن المريني تونس، سنة 748. له ترجمة طويلة في نيل الابتهاج، ط ـ فاس ص 231.

(1) لم نهتد إلى معنى الإشارة إلى النحاس ولا الخبر المقصود من مقولة أبي نواس.

ولــولا الــتــعــلل أن نَــلْــتَقــي
ويجمـعنــا الــدهــر بـعــد الفــراق

لــذبــت اشتــيــاقــاً ولــكــنــنــي
أعــلل قــلـبــي بــيــوم الــتلاق

. . . وهنا طلب العبد من سيده ومالكه أن لا يخليه من مشـرفاتـه ومكاتبـاتـه، وأن لا يقـطع عنـه التعـريف بـأنبـائـه السعيدة، . . . فورودهـا على المملوك يمنع من ذبـول غرس وده، . . . لا سيما إن وردت مرسومة بخطه، . . . قال الشاعر:

ففي الكتب نجـوى من يعـز لقــاؤه
وتقــريب من لم يــدن منــه مــزار

فــلا تـخلنـي منـهــا فــإن ورودهــا
لــعــيــنــي وقــلـبــي قــرة وقــرار

فأجبتم إلى ذلك بالمن والإسعاف، وعدم الخلاف، وقلتم هذا الغرض حاصل، وكتابنا إن شاء الله تعـالى عن قريب إليكم واصل[1] (نثر وشعر).

فلما أن منّ (الله) على عبده[2] بالوصول للمقاصـد العلية والمواطن السنية. . . وقرت عينه برؤية هذه الآثار وقرع باب الرحمة عند وصوله للبيت الشريـف، وقال للزمن من يوم عرفة تنكر ما شئت فقد حصل التعريف (شعر).

---

(1) يذكر أبو عصيدة صديقه المشدالي بوعده بالمراسلة، ليبني على ذلك عتابه له.

(2) يقصد أبو عصيدة نفسه ووصوله إلى المدينة المنورة مهاجراً.

لم يكن له مهمة في المقام، إلا الدعاء لحضرة مولانا الحبر الهمام، بأن ينجح مقاصده الجميلة ومساعيه، ويبلغه في الدنيا والآخرة مآله وأمانيه. . . وكذلك لما تمثل بالحضرة العلية الشريفة النبوية، واقتطف من الروضة السنية ثمار الوصل اللدنية الجنية. . . وحمد الله تعالى الذي فرق وجمع، ووصل حبل السرور بعد ما انفصل وانقطع. . . (ثم وصف الدعاء الذي جرى على لسانه عند الضريح الشريف).

ولم يزل يجدد ذكركم وسلامكم في كل وقت بأدعية مباركة ينهيها، وضراعة بعبودية يضمرها ويبديها، والظن بالله في قبولها جميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فلما كان بتاريخ ( )[1] للحجة مكمل عام( )[2] كتبت لكم رسالة عرفت فيها جميع ما تضمنته الرحلة المباركة من حين انفصالي من مقركم إلى حين كتبي لمقاكم، وعرفت ببعض ما اعتراني من الشوق الملازم والذكر المتصل الدائم، ووجهتها صحبة العبد (؟) مفتاح[3] وصاحبه قاسم[4].

ثم وجهت أخرى بعدها لطيفة أدبية، نزعاتها مشرقية وألفاظها

---

(1) رقم ورمز يمثل تاريخ اليوم لم نستطع حله، وكأنه 24.

(2) تاريخ السنة في شكل رمزي أيضاً لم نستطع حله، ولعله 856 (؟).

(3) الكلمة الأولى من الاسم غير واضحة. أما كلمة مفتاح فهي واضحة، ولكننا لم نجد له ترجمة.

(4) أما قاسم فالظاهر أنه يقصد به الزين قاسم الحنفي، وقد سبقت إليه الإشارة. ويبدو أن هذه المراسلة هامة لاحتوائها على أخبار رحلة أبي عصيدة من القاهرة إلى الحجاز وما جرى له منذ حل بالمدينة إلخ.

مغربية[1]، (أبيات).

ثم أخرى[2] كتبتها بحال إبلال إثر إعتلال، والأعضاء قد اختلجت والأزمة بقرب ما انفرجت، عرّفت فيها السيد الشفيق ببعض ما ألم من الضعف الحنيق، . . . والحمى التي كادت تأتي على الأثر بعد العين، وأين منها يا سيدي حمى القاهرة[3]، وأين وأين إلا أن تلك كانت تزور ليلاً لا نهاراً، وهذه تزور مع النهار جهاراً (ثم استمر في وصف الحمى وأثرها فيه، وأنشد أبياتاً في طلب الفرج والشفاء) فأجاب (الله) بكرمه السؤال وأقبل دليل الفرج والإبلال، إلى أن ودعتها من غير سلام، وقاطعتها بلا وصلة إن شاء الله في صباح ولا ظلام، ببركة هذا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . . .

وكيف يفرح العاقل بنجاته من داء أصابته غوائله، وبه ومنه الداء الذي هو ممرضه وقاتله، وكفى الحياة حظاً إمهال اليوم لا لغد، والموت وإن أبطأ الفتى مرة مّا فهو كالطول المرخي وثْنياه

---

(1) هذه هي المراسلة الثانية من أبي عصيدة إلى المشدالي. وتبدو الروح المغربية المشرقية واضحة في تعابير أبي عصيدة، وستتكرر في كتابته. وكان المتوقع أن يعكس العبارة فيتحدث عن النزعات المغربية والألفاظ المشرقية. لأن المرء إذا هاجر تظل تطلعاته ونزعاته هي الأصل وأما الألفاظ والمظاهر فقد تكون مكتسبة.

(2) أي مراسلة ثالثة تضمنت أخبار مرضه وشفائه.

(3) يبدو أنه يشير إلى الحمى التي أصابت المتنبي والتي قال فيها:

وزائرة كان بها حياء
فليست تزور إلا في الظلام

باليد[1]، (شعر).

ومع هذه النوب الثقال، والتقلب في هذه الأوجال، ما اقللت من وظائف الكتب لسيدي في وقت من الأزمان. ولا غفلت عن السؤال في حال ولا أوان. . .

ثم جعلت أتلقى الركبان، وأسأل القاصي والداني، والأخبار يطرب مفهومها، والإخبار من القادمين لا يخصص عمومها. . . حتى انقشعت الرغوة عن الصريح، وانصدعت الظلمة عن وجه الصباح الصبيح، وتحققنا الأمر من نصه، أو تعاضد قياسه بنصه، وعلم المملوك قياس بعضها أو كلها للحضرة التي يتشرف أهل الشرف بحلولها، ويبتهج مطلول الروض ببهجة طلولها، فشملت المسرة بذلك أقطار جوانحي، وسائر جوارحي. . . وبقيت أرتقب لجوابها الطلوع. . . (نثر وشعر) ولم أزل أتقلب في حرق الانتظار، وأعاني مرارة الاصطبار. . . (شعر ونثر).

وماذا عليكم لو مننتم بأسطر
جعلت لكم فيها علينا التفضلا
فإن لم تكونوا مثلنا في اشتياقنا
فكونوا أناساً تحسنون التجملا

ما أظن سيدى يجمع لي بين غيبتين اثنتين، غيبة عن العين التي هو نورها، والضن بجوابه الذي هو غرض النفس وسرورها. . . وما زال سيدنا ومولانا الإمام القاضي الأجل. . .

---

(1) إشارة إلى قول طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد

فتح الدين أبو الفتح بن صالح،[1] مفتي المسلمين وقدوة الصالحين وخطيب المنبر الشريف وإمام محراب سيد المرسلين. . . يقول: ما رأيتم من الشيخ في هذا الوقت شيئاً من مخاطباته ولا من أجوبته ومكاتباته، عجباً من قلة جوابه لكم. . . مع ما أراكم عليه من فرط الوداد، ونشر أوصافه الجميلة وفضائله، وعد محاسنه وفواضله. . . فما أوجب هذا التغافل عن جميل اخوتكم أو ما سبب هذه الوحشة التي لا تستحقها محبتكم. . .

وإني، يعلم الله، إلى رؤيتكم[2] مشتاق، داع إلى الله تعالى أن يمن علينا منه بوصلة أو تلاق، لأنه لم يلم بهذه الحضرة الشريفة إلا كحال طارق، أو لمحة بارق، ولا سيما حين ذكرتنا بمحاسنه الفائقة، وعجائبه الرائقة، وأفعمتنا بوعده الجميل بزيارة هذه الآثار والإلمام لحرم المختار (ﷺ). . .

فتجدني أجمّل له[3] المفسر، وألمّ له من كذب الاعتذار ما تيسر، ولما طال الانتظار وأعيا الاصطبار:

وضاع زماني في انتظار وفكرة
ولا خبر يأتي إليّ ولا كتب

عجبت وقلت كيف رضيتْ همة سيدي العالية مقاطعة مُحِبَّه

---

(1) ذكره في الضوء اللامع 124/11 على أنه أبو الفتح بن صالح محمد بن صالح بن عمر. وهو غير أبو الفتح بن علي بن إسماعيل الآتي ذكره.

(2) الصحيح أن يقول (رؤيته) لأنّ الكلام ما يزال على لسان فتح الدين المذكور.

(3) أي للشيخ فتح الدين.

وعبده، وغفت نفسه الزكية عن الوفاء له بوعده، (أشعار له في العتاب).

أما علم سيدي أن الحبيب الشفيق والأخ الشقيق من تطلع إلى أخبار أخيه على البعد، وقاسمه في أمره محافظة على الود، ولم يغفل عن دقيق أمره وجليله، وهذا الذي يطلب الخليل من خليله. ليست المودّة بالمحافظة، في حالة المعاينة والملاحظة، ولا الأخوة في وقت الممازحة والمنادمة، ولا خلل المعاشرة والملازمة، قال الشاعر:

وليس خليلي من رعاني حاضراً

وإن غبت عنه لم يكن لي ذاكراً

ما كان أبداً ظني، لقد تقطع المعروف عني، وترغب في التمادي على ترك المكاتبة التي توجبها السيادة، أو تفرط في الانقطاع والتجافي على خلاف العادة. وما ظني الجميل بكم إلا أني بَعْد بُعْدكم ووجود فقدكم، تشرفونا بمشرفاتكم، وتؤانسونا ببدائع مكاتباتكم وجميل مخاطباتكم، وإني أروّح النفس بنسيم استقبالها، وأنقع الغلة ببارد زلالها، وأسكن القلب بسارّ أخبارها، وأنزّه العين في رياض أبكار أفكارها، وأشنف المسامع بفرائد فوائدها، وأتحف الخواطر بجميل عوائدها وجزيل عوارفها، وتقوم رؤيتها عندي مقام رؤية مرسلها، فتترجم عن تفاصيل أمور سيدي وجملها، وأجعلها من أعظم ذخائري ووسائلي، وأستريح إلى منادمتها في بكري وأصائلي، حتى إذا كلما اشتقت النظر إليه تعللت بالنظر إليها، وكلما ارتحت لسماع خبره أقبلت عليها.

فما لسيدي قطع مادة إحسانها، مع استطاعته لها وإمكانها، وعوض عن ذلك الإهمال والصد والمطال، وعدم الاحتبال وقلة

المساعفة والإقبال، وما لحنت (كنت؟) إلا رأيت أجوبته عني مقبوضة، وأذيال حسن العهد منه دوني منقوضة، وأعقب وعده بالمطال، وصرف وجوه أفعاله إلى الاستقبال...

وما أولى سيدي بأن يحفظ من المبرة نظامها، ويتبع الفرس لجامها... بأجوبته ومكاتباته التي اسْتُفِيدَ منها كل حاصل، وأُحْضِرَ منها بكل حظ كامل. فما لك سيدي:

أضربت صفحاً عن جميع وسائلي
وطويت كشحاً عند رد رسائلي
أظننت كل الرد يقبح فعله
ردّ الجواب خلاف رد السائل

ما ظن ذلك إلا من سوء حظي، والسلام.

فلما عدمنا خطابكم وفقدنا جوابكم... لا غرو أني ألممت في كتاب الشيخ علي التواتي[1]، أكرمه الله وأبقاكم، ببعض ما ألّم من صدكم وجفاكم، وعدم عهدكم ووفاكم الذي ضيق على المحب رحب الفضاء وقلب قلبه على جمر الغضا، وجاب وجال، ونثر عقود الاحتمال، وأجلب القلق والهيام، وأحوج الصب إلى العبث بالأقلام، لما أعلم له[2] من الحمية للأخوان،

(1) ذكرنا أن المراسلة الشفوية التي بعث بها أبو عصيدة إلى المشدالي مع الشيخ علي التواتي هي التي كانت السبب في تحرك المشدالي للرد بعد انقطاع طويل، كما تشير عبارات أبي عصيدة. وتلك المراسلة هي التي وجد فيها المشدالي «الخشونة» التي سبق ذكرها.

(2) أي للشيخ التواتي، باعتباره صديق الجميع، وهو محل تقدير المشدالي. وكأن أبا عصيدة يريد التخفيف من وقع العتاب الذي أحس به المشدالي.

والسعي الجميل في مصالح الأصدقاء والأخدان.

وما زالت تشهد له بذلك خواطركم الكريمة، وتحمد له هذه المنقبة الجسيمة، وما زلت أرى سيدي في كل وقت يحسن ملقاه ويكرم مثواه ويبالغ في بره وإجلاله، ويحترمه فوق احترام أمثاله، لوثوقه بصداقته، وركونه إلى محبته ومجادته. . .

فبحسب ذلك وقعت الإشارة من المملوك له ليسعى، على عادته، في جبر القلوب، ويحصل الغرض المطلوب، ويبدي لعلي مقاكم بعض ما يظهر له من القول ويرضاه، حسبما يقتضيه عقله المبارك ويراه، إذ قد يجوز له التزور في مثل هذا ويباح، لما في ذلك من الإصلاح. وما كان قولنا له (؟)ولا وَهْما، وإنما قلنا له من الكلام ما معناه نظماً:

أنــاس أعــرضــوا عــنــا
بــلا جــرم ولا مــعــنــى
أســاؤوا ظــنــهــم فــيــنــا
فــهــلا أحــســنــوا الــظــنــا
ولــمّــونــا (كــذا) فــلو شــاؤوا
لــكــانــوا مــثــل مــا كــنــا
فــإن عــادوا لــنــا عــدنــا
وإن خــانــوا فــمــا خــنــا
وإن كــانــوا قــد اســتــغــنــوا
فــإنــا عــنــهــم أغــنــى

فهذه كانت استراحة من فؤاد حمل المحب عليها، كما قال سيدي، أفراط المحبة والأدب. . . أنهى ذلك له لما ضاق صدره

وعيل صبره، اقتصاراً على ما يبديه لكم من ذلك وينهيه، وإجلالاً عن مخاطبتكم به، إذ لا يوجب ذلك الأدب ولا يقتضيه، . . . فإن رأى سيدي . . . أن هذه الهفوة خرج فيها المملوك عن حد الأدب، وأوصل اللوم فيها بأطول سبب، فمن عادة المولى اغتفار الزلات وإقالة العثرات والصفح عن الجاني والعطف على القاصي والداني، . . . وما ظني بالكلمة[1] أنها تصل بعينها إلى مقركم الشريف، ومع تقدير وصولها أنها لا تغير جوهر قلبكم اللطيف، إلى أن وصل خطابكم، وعَلِمَ المملوك تأثيرها فتأسف لذلك وندم حيث لا ينفع الندم، وتألم غاية التألم، وأخذ بعض البيان[2]، ويستعيذ من عثرات اللسان. غير أنه مستصغر عظيم جرمه في جانب كرمه، إذ علم سيدى الكريم وعقله الرجح السليم، أني لم أرُمْ بذلك استخفافاً بقدره . . . ومن كلام ابن المبارك[3]، رحمه الله، . . . من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، وما غنى العبد وافتخاره . . . إلا بتقبيل الأعتاب الشريفة، والحلول بالحضرة العلية المنيفة بالمآثر العظيمة والمناقب:

خير البرية أحمد المولى الذي
ما زال بالفضل العميم يواسي

---

(1) أي كلمة العتاب التي وصلت إلى المشدالي مع الشيخ التواتي، والتي تبرأ أبو عصيدة من لفظها ووافق على معناها. ونحن لا نعرف ما هي الكلمة بالضبط.

(2) كذا، ولعلها «يعض البنان».

(3) لعله يقصد عبد الله المبارك بن واضح الحنظلي المتوفى سنة 181 هـ.

أولاني المعروف حين أتيته
وسقيت كأساً طيّب الأنفاس

جمع الله بكم الشمل في حضرته عن قريب إنه سميع مجيب.

غير أني والله يا سيدي لا أنسى محبتكم أبداً، ولا أتذكر بعد حلولي بجواره بعدكم أحداً. فالله ينفعني بهذه المحبة الصادقة في ذاته، ويصرف عن كل الخواطر كدر الدهر وآفاته، فإن كان هذا الكلام عتب سيدي عليه، وأشار بقوله إليه، وقال أن فيه خشونة ظاهرة فاشية، ولم يعلم ما في ضمنه من الأسرار الخافية، فربما حصل به الغرض الذي لا يقدر على تحصيله بلطافة المعاني ورقة الحاشية، إذ لعله كان السبب في الكتاب، والحامل على رد الجواب، وإن كان قصد المحب ذلك فلا عجب فقد فاق[1] بعض أهل الأدب:

ولما كتبت الكَتْبَ شوهت خطه
وجئت بما شاهدت من لحنه عمدا
عساه يرى عيباً به فيردّ لي
جواباً لأن العيب يستوجب الردا
وربما صحت الأجسام بالعلل

وقد تنصب هذه المصائد الزكية، لتحصيل هذه المقاصد السنية. سامحنا الله بمنه وكرمه وإن أخطأنا وأسأنا الأدب.

وكذلك كان صَدَرَ وعدُكم الكريم عند الوداع والتسليم، أن

(1) في الأصل (فا) فقط.

غرضكم الحلول بهذه الأوطان الشريفة المعالم[1]، والإلمام بهذه الآثار المشتملة على شتى المكارم، وأن قصدكم الإقامة بها مدة من الأزمان، لتتملوا بحضرة الرضا والرضوان... حتى أخبرت بذلك أكثر الناس، وحصل لهم من السرور به ما لا يعدّ ولا يقاس... لكون لم يحصل لهم منكم ما حصل لجيران بيت الله المعظم من الأنس والإقامة، والإفادة العامة للخاصة والعامة. وكذلك لجيران المسجد الأقصى وأهل الأرض المقدسة[2]، وهم[3] يرون أن بقعتهم الطاهرة، هي المفضلة على الجميع المشرفة المؤسسة، فكل يتضرع إلى الله في السر والعلن، ويدعو باجتماع الشمل بكم عن قريب، والعبد يؤمن ليقوم من الخدمة على قدم الاجتهاد... ويفوز لكمال الحظ من السعادة باللقاء، ويجدد العهد بمشاهدته طلعة المجد والعلا. ويبذل الروح في القربة والخدمة، ويقوم ببعض ما سلف عليه من المنة والنعمة...

وكأني بك مقبل من باب السلام، متوجهاً إلى حضرة سيد الأنام، لأداء التحية والسلام... وكأني بك بعد الاستقرار والراحة من بعد الأسفار، جلست لهم مجلساً شريف المقدار... وقد حف بك من العلماء والفقهاء جم غفير، ومن كل أشعث أغبر خلق كثير، ولم يبق من جيران رسول الله - ﷺ - صغير ولا كبير،

---

(1) أي أن المشدالي قد وعده بالرجوع إلى الحرمين الشريفين.

(2) تذكيراً له بأن المشدالي قد أفاد بالعلم في جولاته أهل مكة وفلسطين ولم يستفد منه أهل المدينة المنورة.

(3) أي أهل المدينة المنورة.

حتى أطّ المجلس وحق له أن يؤط، ما فيه موضع أربعة أصابع إلا وفيه عالم أو متعلم أو مسكين مسرف على نفسه مفرط. وهم محدقون بأبصارهم، منصتون بأسماعهم، ملتمسون ما يطلع لهم من معاليك النيرات، وما تتلو عليهم من غرائب آياتك البينات. وأَنْتَ تنيلهم من إقبالك وبشاشتك كل مطلوب، وتبدل لهم من حسن ملاقاتك ما تملك به النفوس والقلوب... (وبعد حوالي صفحة قال):

فلما أفقت من غمرات سكري، ووثبت من هفوات فكري، وجدت مرارة ما شابني في استغراقي، وإذا الأوهام قد انصرفت والحال على حاله باقي، فكأني في الوقت عالجت وقفة الفراق، وابتدأت منازعة الأشواق، وكأنما أغمضني النوم، وسنح بتلك الفكرة الحلم... قرب الله ذلك أي تقريب. ومتعنا بك في روضة هذا النجي الشفيع الحبيب. وجعل ما توهمناه في أرض الحجاز، يكون حقيقة لا مجاز... وما ذلك على الله بعزيز:

وقــد يجمــع الله الشتيتين بعــدمــا
يــظنــان كــل الــظن أن لا تلقيــا

فبالله يا سيدي لا تهمل من خاطرك هذا الأمل السعيد... فإنه عزم كريم، تقدمه السعادة، ورأي مبارك تخدمه الإِرَادَة،... ولا يصعبّن عليك في طلب هذا الكمال ما السيد المولى عليه من حسن الحال، وبلوغ الغرض والآمال، ونيل المراتب والمناصب، وأدرار المنح والمواهب، فذلك بحمد الله لم يزل لك ملازماً في كل مكان، بل يتضاعف أضـعاف ذلك في هذه العرصات وهذه

الأوطان[1]. وبالجملة فكل مرتبة وإن عظمت وفخمت فهي في جنبها دقيقة حقيرة، . . .

فوالله يا سيدي ما العبد إلا في جلائل نعم الله الجسام. . . لما ظفر بغرضه المطلوب وأمله المرغوب، وبلغ حضرة سيده ومولاه، الذي أولاه الله من الإحسان على يديه ما أولاه، وألقى بعد حط الرحال عصا التسيار، وناجى نفائس الآمال بعرصات الديار، حيث الرغائب المقصودة. . . العين فيها بحمد الله، مشغولة عن المحرمات، بالنظر في المصاحف المعظمة والمصنفات. . . والقدم مقيد عن السعي لغير الطاعات، . . . والقلب متقلب في عوالم اللذات لانتباهه من الرقدات والغفلات، والذهن فارغ من شوغل الأوهام الردية، . . . والوقت قد طاب والرقيب قد غاب، والحبيب قد جاد برفع الحجاب. . . تتجدد على العبد كل يوم أصناف المسرات، وتتسابق إليه أرهاط الفتوحات والهبات. . . فهذا هو غرض منتهى النفوس ومناها، وفخرها بين الورى وسناها، وغاية صدق نية العبد التي نواها وكان يتمناها[2].

وما برح العبد يتطفل يا سيدي على هذه الأبواب. ويلازم

---

(1) يحاول أبو عصيدة أن يقنع المشدالي بتنفيذ وعده بزيارة الحرمين الشريفين، وأن لا يمنعه ما عليه من المناصب والجاه في مصر من تحقيق ما كان عازماً عليه.

(2) كان أبا عصيدة يقول لزميله أنه كان لا يطلب الرتب والوظائف مثله، وإنما كان يطلب مجاورة الرسول ـ ﷺ ـ، وقد تحقق له ما كان يصبو إليه. ولكن شتان بين مقصود كل منهما!

تقبيل المعاهد منها والأعتاب، ويستغفر التواب الوهاب، ويطلب الاستغفار من سيد الأحباب، من هفوات فزعت من عواقبها الجوانح وفرقت، وزلات ارتكبناها حين جمحت بنا خيل الصبا إلى الشهوات واستبقت. (شعر في الدعاء والتوسل بالرسول (ص)، ثم قال) يا سيدي يا رسول الله إني توجهت إليك بك إلى الله، فلا تسلمني ولا تهملني، لأني:

هاجرت نحوك من أقصى البلاد وقد
هجرت أهلي وأحبابي وأملاكي[1]
وقد نزلت حماك الآن معتضداً
أسير ذنب عظيم حائراً باك
وعادة العرب العرباء جارية
حمى النزيل وكشف الضيم للشاكي[2]

... ومن تطفله قراءة الجامع المسند الصحيح المختصر من (؟)[3] - ﷺ - وسنته، وأما تصنيف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري... وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ - تصنيف القاضي الإمام أبي الفضل عياض،... في مجالس عدة وأيام[4]، آخرها بالكمال والتمام

---

(1) في الأصل (أملاك) بدون ياء المتكلم. ولا ندري أي أهل وأحباب وأملاك قد ترك أبو عصيدة وراءه. ويعني بأقصى البلاد بجاية.
(2) في الأصل (للشاك)، وبعد هذه الأبيات شعر آخر في التوسل أيضاً.
(3) كلمة غير واضحة كأنها (أنوره). والراجح إنه يقصد بـ(المسند الصحيح) صحيح مسلم.
(4) يفهم من هذا أن أبا عصيدة كان يتعاطى التدريس في الكتب الدينية. =

يوم طلعت فيه الغزالة، في السادس والعشرين من شهر الرغائب والجلالة، شهر رمضان المعظم المبارك المحترم، وذلك بأثر صلاة الجمعة منه بالروضة الشريفة بين المنبر والضريح وأنا مستقبل الحجرة المعظمة، وظهري مستند إلى صفحة المحراب الشريف الرفيع. وكان محفلاً[1] حفلًا جليل القدر حضرهُ جماعة كبيرة من الفضلاء والصالحين من جيران سيد المرسلين، وجم غفير من العلماء الأعلام والسادات الكرام، ومن كانت بالمدينة المشرفة من الزوار والأضياف، ومن شملته مراحم الألطاف، وكانت ساعة عجيبة الوصف بديعة المقدار. . .

فلما كملت القراءة بالختم بحضرة هذه الأيمة، قام إثر ذلك رجل من المدّاح، آية من آيات الله تعالى في حسن الصوت وطيب النغمة، وأنشد قصيدة عجيبة مطلعها:

شكراً على صوم هذا الشهر في الحرم
وأنس حضـرة أولى الناس بالكرم[2]

فلما كمل الإنشاد. . . ناولته هذه القصيدة من نظم المملوك[3]

= ولكنه لم يذكر إلا مناسبة رمضان والكتب الدينية، وخصوصاً صحيح البخاري والشفا. وهي عادة أهل الجزائر عندئذ أيضاً. وقد استمرت إلى عهود قريبة.

(1) في الهامش بالمخطوط صححت بكلمة (مجلساً) بدل (محفلاً).

(2) ذكر منها أبو عصيدة ثلاثة أبيات فقط.

(3) يعني أبو عصيدة بالمملوك نفسه. وهذه من القصائد التي صرح بنسبتها إلى نفسه. ويشير بـ(الأربعة أقسام) إلى ما قيل من أن الشعراء أربعة: واحد لا يجارى، وآخر شاعر معامع، وثالث يستمع إليه فقط، والرابع جدير بالصفع.

الذي هو قسم من الأربعة أقسام، لا أقول الرابع لشرف الممدوح عليه الصلاة والسلام. وقد مرّ في هذا الهذر[1] منه كثير، أخفيته في سائر المنظوم ستراً من عيى التقصير، ولكنه لا يخفي على ذهن سيدي إذا مر به ولا يلتبس عليه، ولا يخفى لفظه الركيك بين أقوال البلغاء ولا يجوز عليه، ولكنها (القصيدة) صادفت والحمد لله محل قبول وإقبال، وغمرتها غوامر من الفضل والكمال، بشرف الوقت وطيب النية وعناية المصطفى وبركة من معه من الصحب والآل. وهي هذه:

سلوا من سلا ذكر الحبيب وما دنا
ولم يدر أن القلب أولى لمن دنا[2]
أهل في سلو عنه قمت بحجة
أم الشغل في الدنيا لهاك أم الونَى
أظنك قد أهملته متناسياً
فلسنا كما إياك عندي فخلنا

---

(1) يعني الشعر الذي نظمه هو.

(2) القصيدة بلغت 95 بيتاً. وقد نقلنا منها أكثر من غيرها لأنه صرح أنها له لنعرف منها قوته الشعرية وقد تبين أنها قصيدة ضعيفة رغم افتخاره بها. ثم أننا اخترنا منها الأبيات المعبرة عن حالته الخاصة كالهجرة والفقر وتعلقه بالحرم، وهو في ذلك كأنه يرد على من دعاه للعودة إلى وطنه. أما النقل الثاني منها فهو خاص بالسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان الذي كان مقره حاضرة تونس. وفي هذا الجزء من القصيدة يظهر تعلق أبي عصيدة ببلاده واهتمامه بسلطانها وجنوده وخصومه ومآثره، ثم الدعاء له بالتمكين والنصر.

حـرام عـلى قـلبـي سـلوّ هـوائـه
وكيف سُلُوّي وهـولي غـايــة المـنى

ظفرنا بسـاعات الـوصال فـصـادفت
سحــائب جــود الله فــانهملت لنــا

فــلله حــمــداً دائــمــاً مــتــواتــراً
على مــا لنا أولى وشكــراً لـربنـا

وقفت وقـد أوقفت بـالبـاب مهجتي
وآلـيـت أنـي لا أفـارق ذا الـفِـنَـا

وأقـسـمـت إنـي لا ألـوذ بـغـيـره
وأن لا أرى إلا على البـاب هـاهنـا

رضيت بـفـقـري والإقــامـة عـنـده
غنـائي قـرب المصـطفى فَلِيَ الهنـا

* * *

فيـا ذا العـلا والجـود والمن والعـطا
ســألنـاك بــالمختـار فضـلاً يعمنـا

ونصـراً وفتحـاً واحتـرامـاً ورفعـة
لسلطاننـا عثمـان مـالـك أرضنـا[1]

بمغـربـك[2] المـامـون ثبّتـه ربنـا
وزده بـجـاه الـهـاشـمـي تـمـكـنـاً

(1) هو أبو عمرو عثمان، سابق الذكر. وليلاحظ القارىء (سلطاننا... مالك أرضنا).

(2) كان السلطان للمذكور يحكم تونس والشرق الجزائري، بما في ذلك =

وأولاده فـاجـعـلهـم قـرة لـه
وأحفـاده فـاجعلهم نصـر حـزبنـا
وقـائده الأحـظى الوجيـه الذي سمـا
أبو النصر ظافر بن جا الخير[1] أذعنا
بتـأييـد ديـن الله يسـطو بسيفـه
على سـائـر الكفـار أعـداء ديننـا
وآثـاره إيـثـاره الـفـقـرا هـنـا
ببلدة خيـر الخلق يـا نعم مغتنـى
تـقـرب للمـولى بـخيـر عـطيـة
لجيـران طـه فـاستحق بهـا الثنـا
غـنـائم أعـداء الـنبي اسـره (؟)
بمـأخذهـا أضحت لـدى الفقـرا هنـا
غنيمية مـع دان محـل[2] شـراهمـا
لجيـران خيـر الخلق بشـراه بـالغنى
كـذاك سبيـل المـاء عنـد محمـد
معيناً من الزرقا[3] فيا طيب ما اقتنى

= بجاية، بلدة أبي عصيدة. وعبارة (المغرب) هنا قيلت في مقـابلة المشرق، لأن السلطان الحفصى لم يكن يحكم المغرب الأقصى مثلاً.

(1) في (تاريخ الدولتين) للزركشي، ص 134، أن اسم هذا القائد هـو (ظافر بن جاء بالخير) وكان قائد الحضرة ونائباً عند غياب السلطان.

(2) يبدو أن السلطان الحفصي قد اشترى هذين المحلين (غنيمية) و(دان محل) للمجاورين للحرم النبوي، ولم يذكر الزركشي للسلطان هذه المبرات واكتفى بذكر آثاره داخل الدولة.

(3) يشير إلى وقف الماء من الزرقا الذي أوقفه السلطان على أهل الحرم.

وربِّ فكن عوناً له حافظاً وكن
له ناصراً واجعل له منك مأمنا
وزعزع به أركان كل معاند
وهدّ برعب منه للكافر البنا
إلهي به استأصل أعاديه دائماً
وأهلكهم بالسهم والسيف والقنا
وناظمها العبد البجائي أحمد
رجاك بأن يلقاك يا رب مؤمنا[1]

هذا حال العبد وتطفله في كل أوقاته، . . . فإذا دخلت الأشهر الحرم تهيأ لحرم الاحترام، واحرم من بين يديه عليه الصلاة والسلام، ورافق أقواماً راسلهم مولاهم بعرف نسيم التقريب، فهاموا في الحضور وفي المغيب (وصف كل واحد بأوصاف صوفية روحية. . . ووصف أداءهم للمناسك بالتفصيل. وإنشاده هو قصيدة عند حضرة الرسول - ﷺ -) :

بِفَيض فضلك حقق سيدي أملي
ولا تكلني إلى علمي ولا عملي
فما سوى حسن ظني فيك ينفعني
وإن يخب فيك هذا الظن واخجلي[2]

---

(1) لاحظ أن حوالي نصف القصيدة على طولها قد خصصه للسلطان الحفصي ومآثره والدعاء له، رغم أن المناسبة كانت دينية، وكانت في شهر رمضان المعظم، وكان المتوقع أن تكون القصيدة كلها في المديح النبوي.

(2) في سبعة أبيات.

(واستمر في الوصف المذكور إلى أن رجع إلى المدينة ووقف بالحجرة الشريفة) ورجع[1] إلى ما كان عليه بحضرته، من مواضبة (كذا) الوقوف بأبواب حجرته، وملازمة مقامه العلي وروضته. . . ونرجو الله أنها بداية جليلة، يتبعها خير عظيم وعناية جميلة.

ولقد ورد علي يا سيدي كتاب من المغرب[2] من بعض إخواننا[3] في الله صحبة الشيخ المبارك أبي العباس أحمد القروي[4]. . . بتاريخ[5] (؟) لرمضان المعظم من عام التاريخ، وهو يلومني على الإقامة بهذه العرصات المشرفة وهذه الأماكن، التي جرى المملوك فيها على عادة المخدوم[6] في الحب فيها وأثنى على المغاني منها والمساكن، ولا زال مولانا يحرك بذكره الجميل قلب كل ساكن، ويتأسف على فراقه منها محبته في الساكن. وأطال[7] العتب في ذلك والملام، وعدد نصائحه الواهية وأطنب في الكلام. فمن قوله في ذلك: أليست المجاورة مكروهة

---

(1) يعني نفسه. وقد أطال أبو عصيدة في وصف حالته النفسية عند أدائه الشعائر بقرب الحضرة النبوية وجاء بأدب ديني غزير وتفنن في القول.

(2) لا يقصد بالمغرب غير تونس، وكثيراً ما استعمل نفس التعبير الذي كان شائعاً عندئذٍ.

(3) لم يذكر صاحبه بالإسم. وقد يكون واحداً من عائلته أو أقاربه.

(4) انظر عنه ما سبق. وقد ذكر السخاوي في الضوء اللامع 257/2 أنه من متصوفة تونس وكان يجيء بركب الحج كل عام. توفي سنة 869.

(5) لم نهتد لتاريخ اليوم، أما العام فغير مذكور، وهو محال على العام الذي لم نستطع معرفته أيضاً.

(6) يقصد المشدالي.

(7) أي الصاحب الذي راسله من تونس.

عند إمامك مالك[1] والإلمام الكثير لا يشكي من أفرط فيه وطفف، وقديماً يقال رحم الله عبداً زار وخفف، وأمر المجاورة عظيم وخطرها جسيم، ومن ذا الذي يستطيع القيام بما عليه في ذلك... وأيضاً محبة الوطن من الإيمان وتذكر الديار والمغاني من كمال الإحسان... هذا وأمر الغربة على كل حال ذميم، وعيشه لم يزل قط سقيم... لا سيما أن قصرت النفقة ونفذ (كذا) المصروف وطالبتك النفس بما تعودت... وأمر الحاجة إلى الناس والسؤال من أصعب الأحوال لا سيما لمن لم يتعود ذلك في الحل والارتحال، وشيمته البذل والجود والإفضال، ... وأيضاً ربما هجرك على ذلك أعرف الأقارب (؟) وأقرب الإخوان والأتراب، لكون لم يبق لهم فيك مطمع وصلة ولا أمل اقتراب، ولا تعلل برجوع ولا إياب.

فأجبته عن ذلك بما يحسن أن يذكر، وأتيت فيه بما حضر من الكلام (؟) وتيسر، تخليص ما نصه:...

أما ما ذكرت من كراهية الإمام مالك المجاورة بيت الله إنما كره ذلك خوفاً واحتياطاً منه على الناس... خشية قصورهم عن القيام بحق واجب المقام، لا سيما مع طول الليالي والأيام، فيكون عدم الإقامة عنده أفضل... (أخذ يفضل الأماكن المقدسة وما جاء فيها من الفضائل والأجور، وأخبر أنه لا يبغي بها بديلاً وأنه لا يشتهي الترحل عنها).

وأما ما ذكرتم من عدم القدرة على القيام بما يجب وملازمة

---

(1) الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه.

حسن الأدب، فالله المستعان وعليه التكلان. . . (وأشار إلى أنه كان قديماً على النحو الذي ذكره السائل من التشوق للأوطان وذكر الحنين فقال) لي فيه من الأمر ما لا يطاق حتى كنت أتعلل بالرياح، وإيماض البروق في الغدو والرواح، وكانت الذكرى لذلك تقلقني وإلى المعاهد المألوفة في كل وقت تشوقني، وأما الآن فلا تحركني ولا تطربني، ولا تهيجني ولا تعجبني. . .

إذا كنت جار المصطفى ونزيله
فيقبح بي شوقي لأهلي وجيراني
أارغب عن دار بها الخير كله
وفيها هوى القاصى وأمنية الداني

. . . ومع هذا ما كان ذلك القلق لأجل الدار، بل لمن في الدار، إذ ليس الغرض في نفس الأوطان، وإنما السرّ في السكان، فما شكيت الأوجال والأحزان، إلا لتذكر الأهل والجيران والأصدقاء والأخوان، أو لما جرى فيها من أيام الصبا وكان. أما سمعت قول الشاعر:

وحبّب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضّاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلك. . .

. . . وإني لما ارتحلت الرحلة[1] الأولى لقضاء حجة

---

(1) واضح أنه حج مرتين دون أن نعرف تواريخهما. وفي الأولى مكث ـ كما قال ـ أعواماً، ثم رجع إلى وطنه، ولكنه ما كاد يصل تونس حتى عاد إلى =

الإسلام، ما أقمت بالحجاز إلا بعض أعوام، وعدت إلى أن وصلت إلى حضرة تونس بلدكم[1]، ومثلت فيها كما علمتم، بين أيديكم. فوجدت معظم من عرفناه بها من الإخوان الكرام والأيمة الأعلام، وسادات الأنام وجماً غفيراً من الكتاب وذوي الآداب وخدمة الأقلام، ومن كان بيننا وبينه محبة وصحبة وذمام. قد دارت عليه كؤوس الحمام، والتقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام، وصاروا كلهم أضغاث أحلام، وخلا منهم النادي والرحيب وعاينوا من هول الموت كل عجيب، ومضوا على منهاج، ورحلوا إلى دار البِلَى أفواجاً بعد أفواج، ثم سألت عمن تركناه بالأوطان، من الأهل والسكان والأتراب والأخوان، الذين لم أزل مدة بعادي مستديماً له بذكرى، مشاهداً لهم وأن شط المزار بعين فكري، وكانت الأوطان بوجودهم عامرة، ووجوه الآمال بأخوتهم ناظرة...

إذ الـديـار ديـار والـنـعـيـم بـهـا
والنـاس نـاس وفي الأوطـان أوطـار

فإذا الديار بلاقع ومقفرات، ومعارف أصبحت نكرات... وإذا الأحباب وجل الأتراب قد شتت شملهم هاذم اللذات، وفرق جمعهم مفرق الجماعات، وصاروا في الأجداث والأكفان، ولحقوا بخبر كان، فاشتد حزني لفقدهم، وتنغّص عيشي من

= الحجاز لأسباب ذكرها. والظاهر أنه أطال المكث في المرة الأولى مما يفسر قوله إنه وجد أحوال بلاده وأهلها قد تغيرت تماماً.

(1) من هذا نفهم أن المخاطب من تونس (أي أحمد القروي المذكور أعلاه).

بعدهم، وعلمت أني لا شك لاحق بهم... فاقتصرت على الوصول، وجعلت أنشد وأقول:

ما ينفع الربع الرحيب وقد خلا
من أهل ودي ما هم والمنزل
وكأنما كانوا خيالاً طارقاً
نادى الفراق بجمعهم فترحلوا
أأروم من عيشي المقدّم رجعة
من بعد ما ولّى الزمان المقبل

هيهات والله هيهات، أن يرجع ما مات... فثنيت عند ذلك عناني، وقد خامر الْوَلَه قلبي ولساني:

كيف النجاة وما ملكت عناني
والعمر أدبر والمشيب عناني
والعمر يمضي ساعة ثم ساعة
والوزر ينقل عن يدي ولساني [1]

فما أن أتممت الأبيات حتى أتت الخيرات، واضطرمت في الحشى من الشوق الجمرات وفاضت العبرات، وانقشعت بفضل الله سحائب الغفلة عن الناظر، وانكشف قناع الوجد عن معاينة نجد وحاجر، فانتدبت في الوقت لرحيلي، وجعلت الصدق في عزم دليلي... فلم يك غير بعيد إلا وقد رافقني التصديق

(1) قصيدة من 20 بيتاً. يبدو أنها له. وننبه إلى أننا لم نشر إلى الأشعار التي أكثر منها والنقول الأخرى التي جاء بها عند رده على صاحبه الذي لامه على الهجرة.

وصادقني فيما أملته من التحقيق... وإذا بي في الحضرة العلية الفاخرة المولوية الشريفة المحمدية:[1]

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى
فرار محب لائذ بحبيب
أنا اليوم جار للنبي بطيبة
فلا طيب في الدنيا يقاس بطيبي

وأما ما ذكرت من أمر الغربة أنه ذميم... يا أخي من لم يذق مرارة الفراق، لم يدر ما حلاوة التلاق، إذا وصل الغريب إلى دار الحبيب، وجد في التقريب كل أمر عجيب، وإذا وقف بالباب عرف لذة الإغتراب... فالعاقل يكون في نفسه غريباً وقلبه في صدره غريباً وروحه في ذاته غريباً وسره في حاله غريباً فلا يستريح من همّ الغربة ما لم يصل إلى الحبيب، ومن هنا يظهر لك سر معنى قوله عليه السلام كن في الدنيا كأنك غريب. وبالحقيقة ما طاب عيش القوم إلا بعد ما هجروا الأوطان، وتسلوا عن الأهل والسكان... (أقوال وأشعار).

وأما ما ذكرت من نفوذ المصروف وانقطاع المألوف وخوف الحاجة إلى الناس... يا خي: لا بد من ترك محبوب لمحبوب إذ لا يصح الإرادة إلا بترك العادة، ولا يعرف المعروف إلا بترك المألوف... فمن يستعفف يعفه الخلاق، ومن يستغن يغنه الوهاب الرزاق... والقناعة رأس مال اللبيب، وبضاعة الفقير الغريب،

---

(1) لم يذكر هنا كيف رجع إلى الحجاز ولا أي طريق سلك. وسيعود إلى ذلك في نهاية الرسالة.

ولله در ابن حبيب:

تقنـع بما يكفيـك واستعمل الـرضى
فـإنـك لا تــدري أتصبـح أو تمسى
فليس الغنى من كثــرة المـال إنمــا
يكـون الغنى والفقر من قبـل النفس

(أقوال وأشعار في القناعة إلخ.)

وأما قولك ربما هجرك على ذلك أعز الأصحاب، وأقرب الأتراب لعدم الأنس والاقتراب ومواصلة الأنساب، فما علي في ذلك يا أخي[1] ولا أبالي، إذ ربما أنشدهم في ذلك لسان حالي أو مقالي:

إذا كــان أنسي بــالحبيب وقــربــه
وقَـلْبـي مـن كــل الـبــريئــة خــال
فما ضرني من كان لي الدهـر قالياً
ومــا ســرني من كــان فــيّ مُـهـوَال

مع أن أحوال الأصدقاء تختلف، فمنهم من يعد حبه للادخار لدار القرار، ومنهم من يستنهض في عوارض الأوطار لحوادث الليل والنهار، ومنهم من يقنع بدعائه، ويقتدى بنوره وسنائه، ومنهم من يعرف لوفائه، وخالص وده وصفائه، ومنهم من يحب لنواله وجوده وكماله، ومنهم من يتعين رفع قدره لسابق وده وكريم عهده، ومنهم من لا يعبأ بصحبته، ولا يلتفت إلى معرفته لرداءة

(1) وجدناها مرة يا أخي، وأخرى يا خي.

طبعه ونذالة أصله، ومنهم من له في الصحبة حالات شُب الخيالات والمحالات. . . (شعر).

والقصد الذي يرجع إليه، ويسول في هذا الخطب عليه، هو إما صديق فاضل سيد عالم حسيب كريم، أو ساقط جاهل مداهن ساقط الهمة لئيم:

وكـل أخ يـقـول أنـا وفـي
ولـكـن ليس يـفـعـل مـا يـقـول
سـوى مـن هـو ذو حـسـب وديـن
فـذاك لـمـا يقـول هـو الـفعـول

(أشعار ونثر).

هنا انتهى يا سيدي[1] ما اختصرته من جوابه، وزبدة ما شرحته في كتابه. ووحق عزة الله وجلاله، وعظمته وقدرته وجماله، لولا شغل شر العبد وتعلق باله، بما هجس في نفسه من تغير سيدى وملاله، إذ لا يهون علي ذلك أبداً، ولا أقيم مقامكم في الدنيا عندي أحداً:

فإن لم تكن عندي كسمعي وناظري
فـلا نـظرت عيني ولا سمعت أذني
فـإنـك أحلى في فؤادي من الكـرى
وأعـذب طعمـاً في الفؤاد من المن

---

(1) الخطاب للمشدالي. ولو عثر الباحثون على هذا الجواب الذي أرسله أبو عصيدة لصاحبه بتونس لكان قطعة أدبية رائقة ومجادلة نظرية فائقة حول الهجرة وآراء الفقهاء والأدباء والمتصوفة فيها.

ما التَفتُّ إلى الدنيا وما فيها بشيء[1] ولا أرى هذه النعمة التي أنا فيها يعد لها شيء، ومن لي بالقيام بفرائضها؟

وإلى هذا يا سيدي، إنه لما عزم الجناب العالي الفاضلي الأثيرى الزيني الشمسي الحضرمي والمدني[2] على التوجه إلى حضرتكم السنية، القاهرة المعزية... وقف على المملوك وطلب منه رسالة إليكم، أو وصية يبثها بين يديكم،... لعلمه أني لم تتعلق[3] نفسي بذخيرة بعد انفصالي من تلكم الجهات، كتعلقها بشريف تلك اللذات، وتحققه ما أنا عليه من الاستيحاش لمشاهدة كتب سيدى السمية... فما زدت على أن شكرته على هذا المقال، وقلت له في الحال:

سيدى ما أقول أو كيف أشكو
وفؤادي قد خانني ولساني
ما أطيق شكوى إليك ولكن
شرح حالي في الهوى ترجماني

ففهم المراد مني، وقال أنا الكفيل بعرضها على رأسي وعيني، فدعوت له بالمقام، ببلوغ الغرض والمرام...

---

(1) أي لولا تقديره للمشدالي لما اهتم بجوابه أيضاً حتى على عتابه، لأن أبا عصيدة يعيش في نعمة بمجاورته الحرم النبوي. ونلاحظ أن ما اختصره من جوابه لصاحبه بتونس بلغ في هذه الرسالة من ورقة 33 إلى ورقة 47، وهو ما لخصناه نحن في سطور فقط.

(2) لا ندري إن كان هذا الاسم هو نفسه اسم الزين قاسم الحتفي الذي سبق ذكره، أو هو اسم لشخص آخر.

(3) كانت في الأصل (تتلعق)، وكذلك كلمة (الهجات) بدل الجهات.

فبينما أنا يوم منصرف من صلاة الغداة بالمسجد المعظم إذا به قد أقبل... فعلمت أنه كما قدم من سفره فتلقيته وسلمت عليه... ثم أخذ بيدى وأجلسني إليه فبادرته بالسؤال... وقلت له كيف حال سيدي وسندي... فقال ليس ثم إلا ما يسركم سماعه، ويبهجكم استطلاعه، من الصحة والعافية والمسرات الضافية والخيرات المتجددة... فحمدت الله تعالى على هذه البشارة الجليلة...

ثم بعد استيفاء السؤال... إذ به قد أدخل يده إلى جيبه وأخرج لي الرسالة فكدت أطير بها من الفرح والسرور... وانصرفت إلى منزلي قرير العين... إلى أن جلست في محل الخلوة والنظر، وأخرجتها وصدق الخبر الخبر... ثم قبلت مواضع القلم الشريف ومواقعه، وعاينت شمس البلاغة في ليل مداده طالعة...

إيه يا سيدي بلغكم الله المرام... لا تقل إني أقف هاهنا وأقطع الكلام، ولكني أزيد نكتاً (؟) من الكلام، تشتمل على نثار ونظام، لأجلي عن خاطري بقايا الكروب الصادرة من المحبوب، وذلك ـ حفظكم الله ـ أني بينا أنزه الطرف في محاسن هـذه الرسالة المذكورة وأتعجب من حلل انشائها... إذ عثرت على نظم (في العتاب)... ففرقت منه فرق الجبان... ثم أنست به بعد الفرق، وعوذت ناظمه بسورة الفلق... ثم أعربت بعد ما أعجمت وأقدمت بعدما أحجمت، وقلت لا بد من الجواب ولو جرّ عتاب[1]...

---

(1) في وصف أبي عصيدة لوصول الرسالة إليه استطراد بالنثر والشعر، وهو =

وأعتمد على فضل سيدي في الإغضاء عن عيبه وستره... والمسامحة مطلوبة من سيدي على كل حال لا سيما في أمر العتاب... وها أنا قد استرشحت في ذلك فكري الجامد... حتى همى بعض الإهماء... وها هو يعرض بين يديك فإما وإما.

أما قول سيدي... «ما للمحب مع الحبيب مرام».

أقول غير معارض لسيدي في مقاله، ولكن على حسب اعتراف العبد بمقامه وحاله:

أنا عبد وللعبيد ذمام
ومحب وللمحب مرام[1]

كل محب يا سيدي له مرام، وتختلف أحواله بحسب اختلاف المقام، إلا أنه عاجز أبداً عن غرضه مسلوب، قاصر عن تحصيل مرامه من المحبوب.

«كل اختيارك لو عرفتَ حرام» هذا كلام فيه رقة زائدة وحدة، لا أقول خشونة وشدة... هذه يا سيدي منزلة من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، جعلت اختياري كله حرام أن لو عرفته فما قدرت على استخراج هذا الكلام ولا فهمته، وإن كان جعلت اختياري فيما فهمت به وذكرته، من الكلام الذي استثقله

= يعبر بذلك عن قوة عارضته وأدبياته.

(1) من خمسة أبيات، يبدو أنها لأبي عصيدة. وقد أورد شعراً ونثراً لمناقشة المشدالي ومعاتبته على أبياته الثلاثة التي جاءت في رسالته، وأطال أبو عصيدة وتوقف عند كل شطرة من الأبيات.

وخشنته، فقد تقدم الجواب عليه وبينته وشرحته[1]، وإن كان فهمتم غير ذلك مني فإني:

مقيم على العهد الذي تعرفونه
وإن فتكت أيدي الغرام بمهجتي

... فبالله من أوجب هذا التحريم، وهذا التصريح النظيم... ما اختيار العبد منكم إلا مواصلة ما ألفاه من الود الصريح والولاء الصحيح... أصلح الله باستدراك اهتمام المخدوم ما هجس في الخواطر...

وقوله «إن شاء واصل منّة وتعطفاً» نعم ليس في هذا منازع، لا سيما لمن هو لسلطان المحبة طائع... إلا أني أرى قول سيدي في بهذا المعنى كقول من قال الأرض تحتنا والسماء فوقنا، إذ لم يفد الرمز هذا الكلام... والعجب إن كان خطر هذا بفكر سيدي أو مرّ بباله أو كان قصده الإخارة (؟) به في مقاله مع إني لا أقطع ذلك عن جلاله... فإن كان أراد المولى بذلك زيادة تعزيز أو تنبيهاً على عُلُو[2] مقامه الكبير، على وجه التهديد والتذكير، فما احتاج إلى شيء من ذلك على كل تقدير، لأني في... المحققين المجتهدين، وفي معرفته من العلماء العارفين... وليعتمد في هذه الدعوى على ضميره فإنه أصدق شهودي...

وقوله: «أو صدّ عنك فما عليه ملام».

---

(1) تقدم ذلك عند الحديث على الشيخ علي التواتي، والعبارة التي جاءت في السياق وهي «الخشونة».

(2) في الأصل (عليّ).

هذا الصد يا سيدي يحتمل أحول للعقل فيها مجال، وللصد في ميدانها مع المحبوب مقال... وهو إما أن يكون صد دلال أو صد ملال... (ثم أخذ يفسر كل نوع وأطال بالشعر وغيره).

... رجّع الله الغشدامي أبا عثمان[1]. ما زال يغنينا في بعض الأحيان إذا انشرح وطاب، وتذكر معاهد الأحباب: (أبيات) ثم يأتي بعده بأبيات ملحنة على طريقة البلاد المشرقية تجذب الأنفاس الزكية....

أتجفـو محباً مـا سـلا عنـك سـاعـة
وتــزهـد فيــه بعــدمــا كنت راغبــاً

... وقــد ابتـدأتني بلطف واقبــال... وأعقبتني بجفـاء ومـلال... فأطعمني أَوَّلُـكَ في ولائك، وأيـأسني آخِرُكَ في وفائك... ولا تقل ما علي ملام بل عليك ملام، لأن لي حرمة وذمام،... إذ في كريم علمكم... ما كان يوجبه لي السيد المولى الوالد، الإمام العلامة الأوحد الماجد (؟) زاد الله في عمره وبقائه... وما كان لي عنده من الحضوة (كذا) على الأنداد والأتراب، بل على القرابة وذوي الرحم والأنساب[2]...

ولقـد قال لي بعض العـواذل... لما رأى تـذللي لعزيـز

(1) سبقت الإشارة إلى أننا لم نجد له ترجمة. ويبدو أنه كان من جلساء المشدالي بمصر عندما كان أبو عصيدة حاضراً.

(2) يعني أن محمد المشدالي، مفتي بجاية، ووالد أبي الفضل المشدالي، كان يرعى أبا عصيدة ويقدمه حتى على بعض ذوى قرباه. وكانَ على أبي الفضل أن يواصل تلك الرعاية له كما كان يفعل والده معه (أبي عصيدة).

سلطانكم... يا خي إلى كم هذا التلطف المتواتر وهذا الاستعطاف، هوّن عليك فقد مضى زمن الأخوة الصادقة والإنصاف... فلو اقتصرت عن هذا الإطناب، واختصرت عن هذا الاحتطاب، ونظرت إلى ثمرة مضمون الكتاب، وأجبت منه عن بيت القصيد، بما لا لوم عليك فيه، ولا تفنيد، وقلت:

قل لمن أعرض عنا
وتجافى وتعالى
ما بإعراضك عنا
يعرض الله تعالى

....

وقوله: «إن كنت تفرق قربه من بعده»....

فالقرب والبعد يا سيدي اختلفت فيه آراء الرجال ومذاهبهم وتشعبت فيه أقوالهم ومقاصدهم، فمنهم من يرى البعد ويؤثره على القرب ويرى مع ذلك أنه من أهل الحب... ومنهم من يرى القرب هو الأمل المطلوب وأن البعد هو المرهوب... وأظن هذا مذهب الشيخ أعزه الله... ومذهب المملوك في المحبة والهوى، أن نفس الحب في البعد والقرب سواء... أنشدني الشيخ الإمام جمال الدين الهمام، حفظه الله:

أنتم بقلبي وأنا أشكو النوى
إنّ حديثي لعجيب في الهوى

... وفي ذلك أنشد العبد المحب الغريب، يخاطب السيد المولى الحبيب البعيد القريب:

إن قلت غبت فقلبي لا يصدقني
إذ أنت فيه مدى الأيام لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب
وقد تحيرت بين الصدق والكذب
والقرب والبعد في وقت معاً عجب
وحاضر غائب من أعجب العجب

والحق أني أكره البعد والجفاء وأحب القرب والصفا.

. . . وقوله: «فلأنت خلف والهوى قدّام».

والله يا سيدي العظيم:

ما كنت مِمَّنْ هاله أمر الهوى
كلا ولا ممن شكا أوجاله

انتهى الجواب عن الأبيات، على حسب ما هجس في الأوهام والخطرات، وقد ظهر للعبد من مجموع لفظها معنى آخر لطيف يليق بها، وهو أن سيدي. . . أشار إلى عبده بالإغضاء عما مضى، وأمره بالتزام الصبر والرضى، وأن يطوي على الشوق الأضالع، ويترك عن نفسه غرة الأماني والمطامع، فأجبته بالسمع والطاعة إلى ذلك، وسلكت في تسميطها أحسن المسالك، وزدت عليها بيتاً رابعاً، رأيته لسقامي نافعاً، وأنشدت[1]:

(1) الأبيات الثلاثة التي جاءت في رسالة المشدالي والتي توقف عندها أبو عصيدة طويلاً وكانت فيما يبدو، السبب في (رسالة الغريب) كلها هي:

ما للمحب مع الحبيب مرام
كل اختيارك لو عرفت حرام =

على الدنيا وساكنها السلام
إن صح منك أخا الغرام غرام
وأتَتْ بصدق ودادك الأعلام
قف عند حدك جفت الأقلام
ما للمحب مع الحبيب مرام
كل اختيارك لو عرفت حرام
مولى بإحسان عليك تعطفا
وأنالك الألطاف منه وأسعفا
لا شك يا هذا المحب ولا خفا
إن شاء واصل مِنَّةً وتعطفا
أو صد عنك فما عليه ملام

يا من يروم بأن يفوز بقصده
ويرى بأن هوى المحب بوده
ويظن وصلاً مانعاً من صده
إن كنت تفرق قربه من بعده
فلأنت خلف والهوى قدام

كن للحبيب مفوضاً ومسلّما
لتنال من درج المعالي سلّما

= إن شاء واصل منة وتعطفاً
أو صدّ عنك فما عليه ملام
إن كنت تفرق قربه من بعده
فلأنت خلف والهوى قدّام

وتكــون من درك المـلامــة أسلمــا

وإذا عـذولك قـد لحـاك فسـل لمـا

وله فقل لي بالرضاء مقام

هذا مقتضى ظاهر اللفظ وفحواه، وقصد مولاي الحقيقي لا يعلمه أحد سواه، ومن للعبد العاجز القاصر، بإدراك ما يقتضيه معناه الباهر:

مــا كــل دار أقفــرت دار الحـمى

ومــا كــل بيضــاء التــرائب زيـنب

أين أهل التحقيق من بنيّات الطريق. ولكن يا سيدي قد لاح الآن من غررها المنيرة لائحة، وشممت من عبقتها الطيبة رائحة، وبان لي من فهم بعض إشاراتها الجليلة اللطيفة الجميلة التي حارت في فهمها العقول والأذهان، وعجز عن فك رموز معانيها الخفية الشرح والتبيان. ولعله مقصود سيدي الذي كانت إليه منه الإشارة ومضمون العبارة، وهو بالحقيقة لائق بكماله، ومناسب لجماله ومُضاهٍ لقدره وجلاله، وهو أعزك الله وبلغك الغرض والمأمول أني أقول بعد أن أستغفر الله سيدي عما صدر من الكلام الذي يثقل عن سيدي سماعه وتشمئز منه طباعه إذ شيم الإنسان خلط الإساءة بالإحسان، والغفلة من صفات الإنسان، والقلم يزل كما يزل اللسان، وأطلب منه ستراً لما اشتمل عليه من الغيب الفاضح والعي البين الواضح...

إن سيدي الشيخ أوضح الله بصفاء خاطره غوامض الدقائق وجلا بمعارفه مبهمات الحقائق، لما علم من حال مملوكه ما علم، وفهم من سراء تقاطعه لهذا الجناب الكريم ما فهم، مع ما

قررت له بعض ذلك مشافهة مني وبما صدر منه من الجواب، أيقضني (كذا) الآن ونبهني، أشار بهذه الأبيات السنيـة أثناء مخاطبته العلية لمعان شريفة معنوية ولطائف كريمة صوفية ولنكت غرامية عذوبية، تنبيهاً منه على جبر الخاطر بمخاطبته، وأخفى سر المعنى الذي أراده باطناً في ظاهر معاتبته، فهو يعاتبني عني ويبين خطابه مني، بإشارة لطيفة روحانية ورموز دينية لا دنيوية. . . جزيت من سيد حبيب في الله خيراً، وأثابك على مقاصدك سراً وجهراً. . .

وقد أردت يا سيدي النهوض إلى بيان بعض ما لاح لي من محاسن تلك الغرر، ومفاخر تلك الدرر، فتأملت وتدبرت وأمعنت النظر، وتذكرت فرأيت المقام عظيماً والأمر جسيماً، وخوض مثلي في بحار هذه معاني (كذا) خطر، وشغال فكري في هذه المهامه غرر. . . فإن الكلام في ذلك يقتضي معرفة علوم جليلة ودقائق وفنون وأسرار وحقائق، والعبد كما في علمكم الكريم، فقير من ذلك مفلس عديم، كما وصفهم الواصف:

ومـا صـحبـنـا إلا كفـارغ حـمّص
خلي من الـمعـنى ولـكن يـفـرقـع

(ثم أخذ أبو عصيدة يشيد بما في الأبيات الثلاثة من المعاني والإشارات في نظره، ويذكر أن ذلك كأنه شرح أدبي لها. من ورقة 56 إلى 86، ويستدل بالشعر من آخرين في نفس المعاني التي أشارت إليها الأبيات إلى أن قال):

أجرى الله على يديكم الخيرات، وفتح بعلومكم السنية أبواب الطلبات، مع وجود هذا الإطناب في شرح هذه الأبيات، وتنويع

الجواب على حكم تصاريف المهمات، ما حصل للعبد قطع بحقيقة معناها، ولا حصل على يقين من صحة الغرض الذي كان عليه مبناها، والغرض من الصداقة العميمة، والعواطف الكريمة، الإتحاف بفوائد شرح معانيها[1] العجيبة، وبيان أسرارها البديعة الغريبة، لأجعلها ذخيرة جوابي، وفذلكة حسابي وعقيلة تأنيسي في انقطاعي واغترابي، . . . وما أظن سيدي . . . يجد لعبتي هذه الطلبة[2] ثقلاً، ولا يتكلف لها قولاً ولا فعلاً.

غير أني أطلب إليه الإسعاف بالتعجيل وعدم التطويل. . . وكذلك أطلب منه الإسعاف أن يضيف إلى ذلك بعض ما تيسر من دره النظيم[3]، الذي تسري رقته سري النسيم، لأجمع شمله بأخيه اليتيم، وأطرّز به كتابي المسمى:

أنس الغريب وروض الأديب

المعدود من المواهب الكريمة والفتوحات الجسيمة، جمعته مدة هذه الإقامة، المحفوفة بالسعادة، إن شاء الله، والكرامة. وجاء بحمد الله وحسن عونه مجموعاً لطيفاً، وموضوعاً ظريفاً، يسبي برونق آدابه الخواطر والعقول، ويسلى على المعاهد والطلول، يحتوى على:

---

(1) يقصد الأبيات الثلاثة.

(2) تعبير (لعبتي هذه الطلبة) واضح في صورة الشريط، ولكننا لم نفهم مقصوده.

(3) يطلب منه الجواب المستعجل وبعض شعره ليضيفه إلى ترجمته (المشدالي).

مقدمة وأبواب وفصول:

أما المقدمة فتتضمن ذكر الرحلة من حضرة تونس السمية الإمامة العمرية[1]، إلى الحلول بالحضرة الشريفة العظيمة النبوية، ذكرت فيها بعض من لقيناه بها (الرحلة؟) ونبدأ من ذكر تونس بعينها[2]، وورد (كذا) حفيدنا محمد المشدالي[3] صانه الله، ووصول كتاب سيدنا الإمام الشيخ الوالد[4]، أعزه الله، وذكرت عند ذلك من صفته الكريمة، وأحواله المرضية الجسيمة ما يعجز عن بعض وصفه الواصفون وتقصر عنه بلاغة الفصحاء اللسنون. وما ذلك إلّا ببركات إجراء ذكره على اللسان فاستقر سره في الجنان، فجرت ينابيع الفصاحة والبلاغة في القلم والبيان. فحسن الوصف واتسق الرصف، وحصل الغرض، وقضى، بحمد الله، من ذلك الواجب المفترض. والممت عند ذلك[5] حال الأوطان، والأهل والجيران، ونبذاً من مآثر

---

(1) يقصد عهد السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي الذي سبقت الإشارة إليه.

(2) أي يبدأ بمن لقيه بتونس.

(3) يفهم من هذا وما بعده أن أبا عصيدة قد التقى بمحمد المشدالي (وهو أخ أبي الفضل في أغلب الظن) في تونس، قد يكون أثناء ذهابه إلى الحج؟ وما دام محمد المشدالي قد توفي سنة 859 فقد يكون الكتاب والرسالة مكتوبين قبل هذا التاريخ، خصوصاً وقد وضع في النص عبارة «صانه الله».

(4) يفهم من ذلك أن المقصود والد أبي الفضل، مفتي بجاية، وليس والد أبي عصيدة.

(5) أي في الرحلة. والظاهر أنه تحدث فيها أيضاً عن أهله وجيرانه وأصحابه في بلاده، كما يشير إلى ذلك تعبيره.

الأصحاب والإخوان، ثم من لقيته بطريقي في سائر البلدان إلى هذا الأوان.

فذكرت لقاء سيدي[1]، أعزه الله، بالقاهرة المعزية، وترجمت كتابي بترجمته الفاخرة العلية. وكتبتها بالذهب الوهاج، ونشرت من ملابسها العجيبة حللاً تفوق ملابس الديباج، وجمعت فيها من أوصاف المحاسن الفريدة كلما (كذا) افترق في الأقاليم والفجاج، ومن الخصال الشريفة كل واضحة المنهاج، ومن الدرر النفسية ما كل درة منها يتيمة التاج، ومن البراهين القاطعة ما قطعت بها أسباب كل معاند حجاج، وألممت فيها برحلته المغربية ثم المشرقية[2]، وما اتفق فيهما من الألطاف الخفية ومن أنواع الإفادات العلمية والعجائب الحسية والمعنوية القدسية منها ثم المكية ثم المدنية المشرفة ثم المصرية[3]، وذكر بعض أشياخه المرضية الجهابذة العلماء الأعلام أهل المراتب العلية والمقامات السنية، وطرزت ذلك بشيء من نظمه وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلاً ولا يحاوره إلا تعليلاً، ومع ذلك لا يخلو من كمال جمال يلوح على صفحاته، وهبّة طيب تنمّ في نفحاته، وربما تحلت بدرره اللبات والنحور وقصرت عن جواهره البحور، ولكن لم يحضرني منه إلا القليل لا

---

(1) يعني أبا الفضل المشدالي.

(2) رحلة المشدالي المغربية تشمل تلمسان وقسنطينة وتونس، ولا ندري إن كان قد زار مدناً أخرى مثل الجزائر وطرابلس. أما الرحلة المشرقية فقد ذكرها أبو عصيدة مفصلة.

(3) على الترتيب: القدس، مكة، المدينة، مصر. والمعروف أن المشدالي قد زار أيضاً قبرص وبيروت وطرابلس الشام، ولعل غيرها أيضاً.

يسد خلّة، ولا يشفي غلة[1]؛ والأمل في الإسعاف منه بما تيسر مع جواب الأحباب... فإني تركت الباب في محاسنها[2] وهو مفتوح، لما يأتي منكم من الفتوح.

وجاءت[3]، بحمد الله، ناصعة الطرف، بديعة الوصف، تسر الناظرين وتبهج قلوب العارفين وتثلج خواطر المستصفين[4] المحققين، وتنعش أرواح المحبين وتقطع أوصال المنتقدين الحاسدين... وقد علم الله جل جلاله إني لم اعتمد ذلك لأجل دنيا استمنحها، ولا رجاء لمدحة استنشق ريحها، ولكنه صبح قد تبين، وحق واجب على المملوك رأيته قد تعين. إذ لسيدي بالحقيقة على كل إمام الحق المعروف، وله المزية عليهم والشفوف...

وذكرت بعدها ترجمة سيدنا وأخينا في الله تعالى الشيخ الإمام الفاضل الجليل أبا (كذا) العباس الأيدي... ثم من لقيته بالحرمين الشريفين من الأخيار ومن ورد علي بهما[5] ممن يتعين ذكره من الزوار وبعض ما اتفق من الأحول[6] والأخبار. هذا الذي اشتملت عليه المقدمة المذكورة بالإختصار.

---

(1) ذكر السخاوى أبياتاً قالها المشدالي في تلمسان، وجاء له أبو عصيدة بأبيات ثلاثة في جوابه كما مرّ.

(2) المقصود الرحلة أو الترجمة.

(3) الظاهر أن المقصود ترجمة المشدالي.

(4) كذا، ولعل صوابها «المنصفين».

(5) يفهم من هذا أن المؤلف قد جاور بالحرمين معاً.

(6) كذا، ولعلها الأحوال.

وأما باقي الكتاب وسائر الأبواب، ففي أصناف ذكر التبتل في العبادات، وأسرار الطاعات، وما لا غنى للمريد عنه من جميع الإرادات... وذكرت بعضاً من سير شيوخ الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم وما أشاروا إليه من مواجدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم[1]. وطرزته بحكايات عجيبة وفوائد غريبة، ورصعته بشيء من النوادر، ونكت تَلَقَّيْتُها من السادات الأكابر[2]، وعلقت فيه نبذاً من كلام الحكماء وقبضة من فرائد الأدباء العلماء،... تخيرت منها وانتخبت محاسناً لأهل الهوى والعاشقين سواي... لأن المطالعة في الكتب تستروح إليها النفوس، وتجد في مراجعتها والنظر إليها ما تجد في معاطاتها الكؤوس، فالكتاب خير جليس ونعم الأنيس...

وما قصدت به[3] قصد التصانيف المهذبة ولا التآليف المرتبة، وإن كنت قد أودعته من الفوائد ما لعله لا يحصره ديوان، ويعز وجوده عن ذي البحث والافتنان، ومن روائق الأشعار وطرف الأخبار والسير والآثار وأمداح النبي المصطفى المختار، فإن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد... فما القصد إلا التأنّس في الخلوات، والاقتداء بما فيه من الفوائد المجلوات والإشارات الحكميات واللطائف الوعظيات، وأن يكون جليسي في خلواتي، وأنيسي في غربتي ومذكري في

(1) لا ندري الآن الطريقة التي ينتسب إليها أبو عصيدة ولعلها الشاذلية.
(2) لعله يعني رجال التصوف الذين أخذ عنهم.
(3) أي كتابه (أنس الغريب).

غفلتي، فنعم جليس غير ناطق الكتاب، ونعم الحبيب بعد فراق الأحباب. . .

جمعته من كتب عديدة، جليلة مفيدة، من جملتها كتاب الأحياء لأبي حامد الغزالي. . . (ثم ذكر مجموعة من أمهات الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية والصوفية بلغت حوالي عشرين قائلًا) وغيرهم، مما لا أحتاج أطول على سيدي بذكرهم. أسأل الله أن يجعل جميع ما تصوره أفكارنا في النفوس وتسطره أيدينا في الطروس، مبتغى به وجهه، متوخي به رضوانه مأموناً معه سخطه مرجواً عنده غفرانه. . .

ولقد رأى ذلك بعض أصحابنا المجاورين. . . ممن يركن بالإخوة بالله إليه ويعول عليه عند مقابلته، واطلع على ترجمتكم الكريمة المشار إليها، منهم الفقيه النبيه المجتهد المحصل فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي، رجل فاضل سيد نبيل وجيه منقبض لنفسه مشتغل بما يعنيه، قرأ بالبلاد[1] وتفقه وتدرب. . . قعد للإقراء بالحرم الشريف. . . على مذهب الإمام أبي حنيفة. . . فشكرت سيرته وحمدت طريقته، وله اضطلاع بالعربية ومعرفة بأصول مذهب الحنفية ومشاركة في النظم والأدب. من تلامذة الشيخ الإمام شيخ الإسلام كمال الدين الهمام، حفظه الله وأبقاكم، . . . وهو الذي أجازه وأذن له في اللإقراء.

حصل لنا به[2] أنس بالحضرة الشريفة في وقت انتضار (كذا)

---

(1) لعله يعني طرابلس الشام، مسقط الشيخ فخر الدين عثمان.
(2) أي الشيخ فخر الدين الذي يظهر من السياق أن المشدالي لا يعرفه.

الصلوات، وبما حصل ذلك منه في محلنا[1] أكثر الأوقات. وأكد محبتنا فيه معرفته بمقامكم واعترافه بجميل أفعالكم وأقوالكم، وحفظه كثيراً من أحوالكم وأخباركم. وزاد وده تأكيداً إخباره أنه كان أول من كان حضى (كذا) بخدمتكم وتشرف بمعرفتكم حين حلوله ببلدكم[2] طرابلس الشام في رحلتكم السعيدة وسفرتكم. وما زلت أكرر عليه السؤال في ذلك حتى حصل أكثر مما عرفتني به من حال رحلتكم[3] فما قضيت منه العجب، وأثبته في ترجمتكم. جزاه الله عنا خيراً وأبقى بركتكم.

ومنهم الأستاذ اللغوي أبو الفتح بن علي بن اسماعيل الأزهري المصري، والده رجل صالح من خدمة الجامع الأزهر.. . له[4] في العربية باع مديد وفي هدفها سهم سديد، وله في الفقه على مذهب الإمام الشافعي... معرفة لا يفارقها تسديد، إلى مشاركة في غير ذلك. قعد للإقراء بالحرم الشريف، على طريقة حسنة بعبارة فصيحة لسنة. تبلغ المقاصد وتحصل الفوائد، وهو أيضاً من تلامذة الشيخ الإمام كمال ابن الهمام... له منه إجازة غالية جليلة وعناية جميلة أوجب له الإقراء والفتيا...

حصل لنا به أنس زائد، وصلة وعوائد، ومذاكرة في فضائل

---

(1) أي كان يجتمع معه في منزله ـ منزل المؤلف.

(2) (كذا). ولعل الأولى أن يقول «حلولكم ببلده طرابلس».

(3) بذلك يكون أبو عصيدة قد جمع في ترجمة المشدالي ما أخبره به هو وما أضافه عنه الشيخ فخر الدين.

(4) أي أبو الفتح.

وفوائد، إلا أنه مترام[1] بنفسه إلى مدى يوجب لها من الحق ما يعد تطفيفاً في مكيال المعاملة، حتى ربما يوجب ذلك مكالمة ومقابلة، وقد يعرض له في بعض الأوقات خفة زايدة، تحمله على التوغل فيما لا فيه كبير فائدة، ولا هو خال من تعصب ولا تفنيد، فسبحان الذي يزيد في الخلق ما يشاء ويفعل ما يزيد.

فأما فخر الدين فطرب لها[2] غاية الطرب وقضى منها العجب، وقال والله لقد حصّلت الغرض وأديت من الشيخ الواجب المفترض؛ وأما أبو الفتح فحملته في الوقت حمية نفسانية، وكان من قوله إن هذا الذي ذكرت ما في أهل عصرنا من يصل إليه ولا من حصل عليه، ولا في وقتنا هذا أبداً من يصل إلى هذا الشأن، وإن وصل إليه أحد فيكون الشيخ فلان إذ ليس في المغارب والمشارق له نظير يضاهيه ولا شبيه يوازيه أو يدانيه.

فقلت أما الشيخ[3] فإنه بمقامه معترف، وأما أن يكون ليس في المغارب والمشارق أعلم منه فما يقول هذا إلاّ متعصب أو متعسف أو جاهل بالمقام أو غير منصف. عندنا ببلادنا[4] الشيخ الإمام العدل، والد الشيخ المذكور أبي الفضل، ليس بينه وبين غيره مناسبة في سائر العلوم ولا مقاربة. فقال لي: الفقيه أحمد الليدي ما تقول فيه؟ قلت سيد فاضل صالح فقيه نبيه، قل[5] هو

---

(1) أي متكبر ومتجاف.

(2) أي ترجمة المشدالي.

(3) أي الشيخ الذي ذكره أبو الفتح ولم يسمه.

(4) يعني بجاية ونواحيها.

(5) كذا، ولعلها (قال).

أخبرني أنه أعرف وأفقه من أبيه[1]. فقلت لم يقل ذلك الفقيه أبو العباس أحمد، إذ قد يعرف من مقامه ما لا يعرفه أحد، وإنما أعد مقالك هذا من شهوات اللسان وزلله وفلتاته، وإنما الشيخ أبو الفضل حسنة من حسناته[2].

ومع هذا هل قرأت على الشيخ أبي الفضل شيئاً من العلوم الفقهية أو الحكمية أو فناً من الفنون اللسانية أو القاليمية (؟) أو حضرت له مجلساً خاصاً أو عاماً؟ فقال: لا. قلت كيف تنكر ما قلناه وتنازع فيما وضعناه؟ يعلم الله لو كان الشيخ فلان حاضراً في المكان لاعترف له بالإمامة والفضل، إذ لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلّا أهل الفضل. وإني لأعلم إني فيما قلته فيه مقصر، وفيما أطلت من وصفه مختصر، إذ لا نسبة بين من ذكرته وبين ما أغفلت، وما جهلت من ذلك أكثر مما نقلت، وما نسيت أكثر مما ذكرت. فبحر الإدراك مسجور، وأمر الإحاطة بالعلم على الإنسان محجور. ولكن الشمس لا يسترها الخمار، وهل يخفي على الناس النهار. . . وشهد له الزمان أنه وحيده، ورئيس عصبته وفريده، كما وصفه من يعرفه: [3]

بحار علوم زاخر متوفر

علیم وفي شانيه جهل مركب

---

(1) أي أن أحمد الليدي قد أخبر أن المشدالي أفقه من والده. وقد شاعت هذه الدعوة في ترجمة المشدالي.

(2) الغالب أن المقصود أن المشدالي حسنة من حسنات والده وليس من حسنات أحمد الليدي كما قد يفهم من السياق.

(3) نرجح أن تكون الأبيات من نظم أبي عصيدة.

عجائب ما قد حازها متعمم
فحقق ودع قول الذي يتعصب
مسدد آراء جلت كل شبهة
مفتح أبواب لمن جاء يطلب

فقال: بالحق لولا تفاوت العلماء في هذه المقاصد، ما عد منهم ألف بواحد. قلت:

وليس على الله[1] بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

وانقضى المجلس على هذا الشأن، وما زالت بعض الوحشة في الخواطر الآن، أوزعني الله شكر يد سيدي العظمى، وأبقى على حبه الذي استوليت به على الزمان حكماً...

سيدي، لا تأخذوا على المملوك في سرد هذا الهذر العظيم وتواتر هذا الكلام الذميم الطويل، والغرض التشفي[2] بمخاطبتكم والتأنس بمحادثتكم والتلذذ بمعاتبتكم... (وبعد شعر ونثر قال:)... فلولا نفحة من تلك الشمائل ونسمة من تلك الخمائل ما كنت مبتدراً إلى هذه الرسالة، ولا مبديها لعليّ تلك الجلالة، ولكن لما طالعها الإنشاء، ومازجها من ذلك الروح والانتشاء، أبت إلّا أن تنشر ما أودعته من تلك المحاسن، وتظهر ما خمّنته من ودّ لَكَ في الفؤاد كامن... فعذراً عذراً من هذا الطول الذي هو أخو الملل، وستراً ستراً من هذا الإكثار الذي هو رفيق الزلل...

(1) في الأصل (وليس لله).

(2) يقصد الإستشفاء.

ولقد خاطبتني هذه الرسالة بلسان حالها، عند كمالها وتمامها، وقالت: إيه سيدي[1] قد وجهتني إلى هذا السيد[2] المولى، بما لم أطق من ثقله حملاً. وقد عرتني الآن حشمة منه ووجل، فكيف إذا مثلت بين يديه ووقفت بين العبيد والخول... وأنا من الفصاحة والبلاغة بمعزل... كيف العمل سيما إن لم يمد يد القبول إلي، وصرف إقبال عنانه عني وإلي؟... فقلت لها لا تخافي ولا تحزني لأني قد أويتك من حرمه إلى ظل ظليل، وأحللتك من فنائه أشرف معرس ومقيل... (وبعد أن أوصاها بأن تتصرف مع صاحبه تصرف العبيد مع الملوك قال):

فقالت: هل تطلب لذلك الجواب، أو تعرفه بوصولي لحضرته الشريفة الجناب؟ فقلت: لا أطلب الجواب، ولا أجثم سيدي برده، كما كلفته شطط سرده، فمن التخفيف، طي بساط التكليف وعذره في ذلك مقبول... وما القصد إلّا مطالبته أولاً من شرح معاني شريف تلك الأسرار[3]، وما تيسر لديه (من) بنيات الأفكار، وإن يتعاهد مُجْدِبَ أرض عبده بصالح دعواته، وأن يتفقده بخاطره وبركاته، بإعادة السؤال، فقلت لها لا تطولي المقالة فإني بحال استعجال، لارتقاب شهر شوال، عرفنا الله بركة استهلاله، وصلى الله على النبي محمد وآله وصحبه وشرف وكرم. (انتهت الرسالة).

الجزائر 5 يوليو 1989

---

(1) الخطاب هنا من لسان الرسالة إلى المؤلف ـ أبي عصيدة.

(2) هو المشدالي.

(3) أي لا يطلب جواباً عادياً ولكن يطلب منه توضيح ما جاء في أبياته الثلاثة من معان احتار معها أبو عصيدة.

بعـض المـراجع

رجعنا إلى العديد من كتب التراجم والتواريخ حول بجاية والدولة الحفصية عموماً خلال القرن التاسع، وليس هناك طائل من ذكر كل ذلك هنا. وإنما نذكر ما نشعر أن الحاجة تدعو إليه لفهم العصر وأهله. أما أحمد البجائي مؤلف (رسالة الغريب) فلم نكد نعثر له على أثر ضمن هذه المراجع.

- **ابن خليل، عبد الباسط**؛ الزهر الباسم في حوادث العمر والتراجم (مخطوط)، 4 أجزاء مصورة عن نسخة مكتبة الفاتيكان، دار الوثائق المصرية.
- **برونشفيك، روبير**؛ رحلتان مخطوطتان عن إفريقية الشمالية في القرن 15 م، عبد الباسط بن خليل وأدرون، معهد الدراسات الشرقية لكلية الآداب، الجزائر.
- **التمبكتي، أحمد بابا**؛ نيل الابتهاج.
- **الحفناوي، أبو القاسم**؛ تعريف الخلف برجال السلف، جزآن، ط. مصورة 1985.
- **الخلوف، أحمد**؛ جني الجنتين، تحقيق العربي دحو، أطروحة دكتوراه، مخطوط، جامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب العربي.
- **الزركشي، محمد بن إبراهيم**؛ تاريخ الدولتين: الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس.
- **الزركلي، خير الدين**؛ الأعلام، ط. 3، بيروت 1969.
- **السخاوي، محمد بن عبد الرحمن**؛ الضوء اللامع، ط. مصر (1353 - 1355).

- **السراج، محمد بن محمد الأندلسي (الوزير)**؛ الحلل السندسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس.
- **سعد الله، أبو القاسم**؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ط. 2، جزآن، الجزائر 1985.
- **الغبريني، أبو العباس أحمد**؛ عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، ط. بيروت 1969.
- **القلصادي، علي**؛ رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، تونس 1978.
- **كرو، أبو القاسم**؛ علماء قفصة في عصر ابن راشد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م 63 / جـ 4 (أكتوبر 1988).
- **مخلوف، محمد**؛ شجرة النور الزكية، ط. مصر.
- **المنوني، محمد**؛ فهرس المكتبة الناصرية بتمغروت 1985.
- **نويهض، عادل**، معجم أعلام الجزائر، ط. 1، بيروت 1971.

فهرس الأسماء والأعلام

- أ -

ابن أبي شريف (الكمال): 33 .

ابن أبي عذية: 31.

ابن إسماعيل (أبو الفتح المصري): 29 ـ 30، 94 + هـ، 95 هـ.

ابن البارزي (الكمال): 31، 33.

ابن التنسي (البدر): 33.

ابن جاء الخير (ظافر): 22، 68 + هـ.

ابن حجر: 34.

ابن الخطيب (لسان الدين): 29.

ابن الدير (سعد): 31.

ابن راشد: 49 هـ.

ابن رشيد: 29.

ابن زغدان: 34، 47 + هـ.

ابن سلام: 45.

ابن صالح (أبو الفتوح): 55 + هـ.

ابن ظهيرة (البرهان): 33.

ابن عثمان (المنصور): 23.

ابن عزوز (المكي): 16.

ابن الغرز: 33، 48 هـ، 49 هـ.

ابن مالك (محمد): 16.

ابن المبارك: 59 + هـ.

ابن الهمام (الكمال): 25، 29 ـ 30، 32، 34، 94.

أبو الحسن المريني: 50 هـ.

أبو حنيفة: 93.

أبو العباس أحمد: 96 .

أبو عصيدة (أحمد ـ البجائي): 15 ـ 32، 34 ـ 41، 42 هـ، 49 هـ، 51 هـ ـ 53 هـ، 57 هـ، 63 هـ ـ 66 هـ، 69، 70 هـ، 77 هـ ـ 80 هـ، 82 هـ، 84 هـ، 89 هـ، 91 هـ ـ 92 هـ، 94 هـ، 96 هـ، 98 هـ.

أبو عمرو عثمان: 22 ـ 24، 37، 66 هـ ـ 67 هـ، 69 هـ، 89.

أبو نعيم: 29.

أبو نواس: 50 + هـ.

الأيدي (أبو العباس): 27، 33 ـ 34، 47 هـ، 48، 91، 95 ـ 96 هـ.

- ب -

البخاري: 24، 37، 64 ـ 65 هـ.

البقاعي: 31.

البيجوري (شهاب): 33.

بيلج: 48، 49 هـ.

- ت، ج -

التريكي (محمد): 34 ، 47 هـ.

التــواتي (عــلي): 36، 45 + هـ، 57 + هـ، 81 هـ.
جقمق (الظاهر): 23.

- د، ز -

الديسطي: 33.
الزواوي (أحمد): 21.

- س، ش، ط -

السخاوي: 20، 21، 25، 31، 32، 33، 34 هـ، 91 هـ.
السطي (علي): 31 .
الشافعي: 94.
طرفة بن العبد: 54 هـ.

- ع، غ -

عثمان (فخر الدين الشامي): 24 ـ 25، 29 ـ 30 ، 93 + هـ، 95.
عجلون (ابن قاضي): 33.
علجية: 22.
عياض (أبو الفضل): 64.
الغزالي (أبو حامد): 29، 93.
الغشدامي أبو عثمان: 39، 48 + هـ، 82.

- ق -

قاسم الحنفي (الزين): 34 ـ 35، 38، 52 + هـ، 78 + هـ.
قايتباي (الظاهر): 23.
القروي (أحمد): 23، 34، 37، 70، 73.
القشاش: 47 هـ.
القشيري: 29.
القفصي (محمد): 34، 49.
القلصادي: 21، 34.

- ل، م -

اللبني (أبو العباس): 47 + هـ.
مالك بن أنس: 71 + هـ.
محمد (ﷺ): 24، 28، 36 ـ 37، 43، 55، 59، 61، 63 هـ ـ 64، 69، 72، 75، 92، 98.
المزف: 48 .
المزوار (أبو علي المنصور): 22.
المشدالي (أبو الفضل): 15، 17 ـ 27، 29 ـ 41، 42 هـ ـ 48 + هـ، 51 هـ، 53 هـ، 57 هـ، 61 هـ، 63 هـ، 70 هـ، 77 هـ ـ 78 هـ، 80 هـ، 82 هـ، 84 هـ، 88 هـ ـ 91 هـ، 94 هـ ـ 96 + هـ، 98 هـ.
المشدالي (محمد): 23، 89 + هـ.
مصرانه: 48 ـ 49 هـ.
مفتاح: 35، 52 + هـ.

- هـ -

الهمام (جمال الدين): 83، 93.

فهرس الأماكن والبلدان

ـ أ ـ

الأزهر: 30، 94.

الإسكندرية: 50 هـ.

إفريقية: 22.

الأندلس: 21، 40.

ـ ب، ت ـ

بجاية: 18 ـ 20، 22 ـ 23، 30 ـ 32، 34، 38 ـ 39، 46 هـ، 64 هـ، 68 هـ، 89 هـ ـ 95 هـ.

برنستون ـ مكتبة الجامعة: 15، 16.

بيت المقدس: 36.

بيروت: 31، 90 هـ.

تلمسان: 19، 34، 90 هـ ـ 91 هـ.

تونس: 19 ـ 20، 22 ـ 24، 26، 30، 37 ـ 40، 47 هـ، 50 هـ، 66 هـ ـ 67 هـ، 70 هـ، 72 هـ ـ 73، 77 هـ ـ 78 + هـ، 89 هـ ـ 90 هـ.

تيزي وزو: 15.

ـ ج، ح، د ـ

الجزائر: 16، 22، 30، 46 هـ، 65 هـ، 90 هـ.

جنوة: 31.

الحجاز: 15، 19 ـ 20، 23، 25 ـ 27، 33 ـ 40، 46 هـ، 50، 52 هـ، 73، 75 هـ.

الحرم النبوي: 15 ـ 16، 25، 29 ـ 30، 34 ـ 35، 37 ـ 38، 66 هـ، 68 هـ، 78 هـ، 93 ـ 94.

الحرمان الشريفان: 44، 61 هـ، 63 هـ، 91 هـ.

حماه: 31.

دمشق: 31.

ـ ر، ز ـ

الروضة الشريفة: 37، 65.

الزرقا ـ عين: 68 + هـ.

زواوة: 15.

ـ س، ش، ط ـ

سورية: 23.

الشام: 26، 33.

طرابلس الشام: 29 ـ 31، 40، 90 هـ، 93 هـ، 94 + هـ.

- ع، غ -

العالم الإسلامي: 21، 24.
عنابة: 22، 31.
عنتاب: 33.
غرناطة: 32.

- ف، ق -

فلسطين: 40، 61 هـ.
القاهرة: 17، 21 ، 25 ـ 26، 31، 33 ـ 38 ، 42 هـ، 48 هـ، 50 هـ، 52 هـ ـ 53، 90.
قبرص: 31، 90 هـ.
القدس: 26 ـ 27 ، 30، 33، 90 هـ.
القسطنطينية: 24.
قسنطينة: 22، 31، 90 هـ.

- م -

المدينة المنورة: 17، 20، 25 ـ 27، 29، 35 ـ 37، 42 هـ، 51 هـ ـ 52 هـ، 61 هـ، 70، 79، 90 هـ.
المسجد الأقصى: 61.
مشدالة: 18.
المشرق العربي: 19 ـ 20، 23، 27، 32، 34 ، 40، 46 هـ ـ 47 هـ.
مصر: 15، 20، 23، 26 ـ 27، 30 ـ 32، 35، 38 ـ 40، 44 هـ، 46 هـ، 82 هـ، 90 هـ.
المغرب الأقصى: 22 .
المغرب الأوسط: 22.
المغرب العربي: 21، 27، 34، 47 هـ.
مكة: 27، 34، 36، 42 + هـ، 90 هـ.

- و -

الولايات المتحدة الأمريكية: 15.

المحتوى

مقدمة 5

1 ـ المخطوط 15

2 ـ أبو عصيدة البجائي 18

3 ـ عصر أبي عصيدة 21

4 ـ وصف كتاب (أنس الغريب وروض الأديب) للبجائي 25

5 ـ ترجمة أبي الفضل المشدالي 30

6 ـ أقسام (رسالة الغريب) 34

7 ـ خلاصة (رسالة الغريب) 40

* أبيات من قصيدة افتتاحية للبجائي 42

* ديباجة الرسالة 43

* معاتبة بين البجائي والمشدالي 45

* البجائي يتذكر اجتماعه بالمشدالي بالقاهرة 46

* ويصف رحيله من القاهرة ووصوله إلى الحجاز 50

* ويعدد الرسائل التي أرسلها إلى المشدالي ، ويصف حمى أصابته . 52

* ويصف شوقه إلى أخبار المشدالي وجفاءه له 54

* عتاب البجائي للمشدالي 57

* وعد المشدالي بزيارة المدينة المنورة بعد مكة المكرمة والقدس 60

* البجائي يتحدث عن تدريسه بعض كتب الحديث في المسجد النبوي 63

* قصيد للبجائي في المديح النبوي ثم في مدح الأمير الحفصي : أبي عمرو عثمان 66

* رسالة حملها الشيخ أحمد القروي التونسي إلى البجائي تلومه على طول المجاورة 70
* رد البجائي على رسالة اللوم على طول المجاورة 71
* وصفه لرحلته الأولى إلى الحجاز وعودته إلى تونس ثم الرجوع منها فوراً إلى الحجاز 72
* متابعة الرد على رسالة اللوم 75
* البجائي يصف حالته عند وصول رسالة المشدالي إليه 79
* ويعاتبه على عتابه........................ 80
* تسميط البجائي لأبيات المشدالي 85
* وتعليقه على نفس الأبيات........................ 86
* ويطلب من المشدالي إمداده بأشعار ليحلي بها ترجمته له ... 88
* البجائي يصف كتابه (أنس الغريب) ومحتوى مقدمته وفصوله . 88
* البجائي يصف اختلاف رأي بعض علماء الحجاز في الترجمة التي كتبها لِلْمشدالي........................ 93
* البجائي يصف دوافع رسالته إلى المشدالي ويطلب منه الجواب عليها........................ 97
ـ مصادر التحقيق 99
ـ الفهارس 101
ـ المحتوى 103

(*) تنبيه: رغم حرصنا على وضع الهمزة في موضعها من المتن، فإننا لاحظنا أنها لم تكن كذلك في كل الحالات. فنرجو المعذرة.

كتب للمحقق

أ ـ في الأدب:

* النصر للجزائر (شعر)، ط. 3 ، 1986.
* ثائر وحب (شعر) ط. 2، 1977.
* الزمن الأخضر (ديوان سعد الله)، 1985.
* سعفة خضراء (قصص)، 1986 .
* دراسات في الأدب الجزائري، ط. 3، 1985.
* شاعر الجزائر: محمد العيد، ط. 3، 1984.
* حكاية العشاق (تحقيق)، ط. 2، 1983.
* القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني، ط. 2، 1985.
* تجارب في الأدب والرحلة، 1984.
* مختارات مجهولة من الشعر العربي (تحقيق)، ط 2، 1991 .

ب ـ في التاريخ:

* الحركة الوطنية الجزائرية جزآن (ثان وثالث)، 1983، 1986، ط. 3.
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر أربعة أجزاء، 1982، 1985، 1990، 1992.
* تاريخ الجزائر الثقافي، جزآن، ط. 2، 1985.
* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب وولف)، 1986.
* شعوب وقوميات، 1985.
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل)، ط. 2، 1982.

* محاضرات في تاريخ الجزائر (بداية الاحتلال)، ط. 3، 1982.
* تاريخ العدواني (تحقيق) - (عند الناشر).
* تراجم مشرقية ومغربية (تحقيق تاريخ عبد الحميد بيك) - في التحضير -.
* الحركة الوطنية الجزائرية - الجزء الأول - ط. 1، 1992.

ج - دراسات وأبحاث عامة:

* منطلقات فكرية، ط. 2، 1982.
* رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي، ط. 2، 1990.
* أفكار جامحة، 1988.
* قضايا شائكة، 1989.
* شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون، 1986.
* الطبيب الرحالة: عبد الرزاق بن حمادوش (دراسة)، 1982.
* رحلة ابن حمادوش (تحقيق)، 1983.
* منشور الهداية للفكون (تحقيق)، 1987.
* في الجدل الثقافي (عند الناشر).
* رسالة الغريب إلى الحبيب لأبي عصيدة البجائي (تحقيق)، 1992.
* La Montée du Nationalisme Algérien, 2e éd, 1985.

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم	:	1993 - 1 - 2000 - 233
التنضيد	:	كومبيوتايب – بيروت
الطباعة	:	دار صادر – بيروت

دار الغرب الإسلامي

albordj.blogspot.com